ضدّ التعذيب في الجزائر

تأليف
بيير - هنري سيمون

نقله عن الفرنسية
بهيج شعبان

دار العلم للملايين
بيروت

ضدّ التعذيب في الجزائر

تأليف
بيير - هنري سيمون

نقله عن الفرنسية
بهيج شعبان

دار العلم للملايين
بيروت

لو عرفت شيئاً مفيداً لعائلتي وغير مفيد لوطني ، لحاولت ان أنساه ، ولو عرفت شيئاً مفيداً لوطني وضاراً بأوروبا ، او مفيداً لاوروبا وضاراً بالجنس البشري ، لنبذته كالجريمة .

مونتسكيو

ليس هناك من شعب في العالم يفعل الشر بقليل من الجدارة مثلنا (...) ان الفضيلة وحدها تليق بنا (...) واذا اريد منا ان نسير في سبل غريبة عن طبيعتنا، فاننا نصبح أدنياء ، دساسين دون نجاح ، سخرية للجميع وجديرين بالاحتقار .

جوبرت

موقف

سأكتب هذا الكتاب ، وليس بدون سبب ؛ فأنا أعلم ان الكلمات ستمزقني في الغالب ، وأعلم انني سأثير ضدي غضباً سوف ينفجر شتائم ومطاعن ، وانا أشعر بالارتياح في التعاطف اكثر من الحقد ، وافكر على الخصوص انني سأباغت وأصدم أناساً فضلاء ، وكائنات عزيزة ، وأنني سأتألم من توبيخهم او من سكوتهم . ومع ذلك ، يجب ان ارفع صوتاً يخنقني ، منذما أزعجت ضميري كفرنسي معرفة بعض الاعمال ، ان على الكاتب الذي لا يفعل ذلك بدافع التسلية او المصلحة ، بروح التجارة او الزهو ، بل لأجل خدمة الروح، ان يقذف احياناً فوق اختلاط الحوادث ، وفوق ثغاء القطيع ، صرخة توقظ الناس .

فلأنني سأبحث بصراحة أعمالا يعرفها البعض ، ويشك بها الكثيرون ومغطاة بصمت حيي ، ولأن مقاصدي يمكن ان يدينها الوثنيون والجيش بشكل صارم ، فانني سأبدأ ببيان

وضعيتي ، وأعتذر لاضطراري في هذه الصفحات الاولى الى الكلام عن نفسي . ولكنني أحرص على الا يطفو اقل التباس على نياتي .

انني وضيع الجامعة ودار المعلمين ، ولم اكن أبداً من اولئك المتنورين الذين تتولاهم افكار مسبقة ضد الجيش . حينما كنت ادرب في شارع « أولم » لم أعبس مطلقاً حيال « البون فوست » . انهم يشيرون الى الاعداد العسكري تحت هذا الاسم الحربي البديع ، الذي كان اسماً لأول قائد مكلف بتهيئة طلاب دار المعلمين تهيئة عسكرية . فاذا أحصيت سنة الخدمة ، والدورات ، وتعبئة مونيخ ، وسنة ١٩٣٩ ، اكون قد ارتديت بزة ضابط ما يقرب من سبع سنوات ، ولكنها لم تقلدني اية وظيفة . فقد حاربت بشكل ضئيل ، ولكن الذنب لم يكن ذنبي اذا كنت قد اوسلت الى مدينة في الغرب عند عودتي من مهمة في بلجيكا وأعطيت فرقة من الفتيان المنهوكين الذين لم يكونوا قد تسلموا بنادقهم بعد حين التقطهم الالمان (ومع ذلك فلم يكن هناك بنادق) ، وكنت تلقيت ايضاً من رئيسي الكولونيل امراً بأن الاعب جنودي بلعبة القضبان لأشغلهم اثناء فترة الانتظار . وقد جرى ذلك في شهر الزنابق والورود في ثكنة كامبرون ، في نانت ، وأعترف ان المعركة كانت معركة واترلو بشكل تافه . وتبع ذلك بقائي تسعة وخمسين شهراً في الاسر . ورغم البلاغة العاطفية التي كانت تحتل مكان الشرف في تلك السنوات فانني لم افكر مطلقاً ان هناك بطولة

في ان يكون المرء سجيناً ، ولكنني كنت اعتقد ان من الممكن ان يسلك المرء كما ينبغي في كل حالة يفرض النحس نفسه فيها ، وقد حاولت ذلك . ففي شتاء سنة ١٩٤٠ في نورمبرغ ، حاولت ان اعمل شيئاً لاتقي انهيار المعنويات ، وبدأت مع بعض الرفاق باذاعة نشرة خفية تفسر اخبار مذياعنا المخفي ، بشكل يبعث القوة والامل . وحين وشى بنا ضابط فرنسي في داخل المعسكر ، فان وجود هذه النشرة سبب لي بعض المتاعب مع (الأبوير) Abwehr . وتضطرني الحقيقة الى القول ان الواشي ، وهو رجل صالون كبير وصحافي من أقصى اليمين ، قد أعيد الى الوطن كمحارب قديم وأصبح موظفاً مهماً في حكومة فيشي ، وكوفيء منذ أمد يسير على ذلك بشارة ضابط في جوقة الشرف .

اما انا فأحمل بقليل من السرور الشريط الذي منحته بعد ثلاث سنوات على عودتي من لوبك ، حيث انهيت مدة اعتقالي مع اولئك الذين اعتبرهم الالمان ، عن خطأ او عن صواب ، اكثر صلابة .

وفي اثناء هذه السنوات الخمس من الاعتقال ، احتككت بألوف الضباط ، من الذين تحت الخدمة ومن الاحتياط ، ووجدت فيهم النسبة نفسها ، بشكل محسوس ، من النفوس الخيرة والشريرة ، من الشجعان والجبناء ، من الطبائع الكريمة او التافهة ، الموجودة في اي وسط آخر . وليس هناك من حالة تكفي بذاتها للوصول الى النبل ، ولكن لا يوجد ايضاً من لا

ينمي شكل الذكاء الذي يلائمه ، وانا لا اعتقد ان الذكاء الجامعي يرجح المرء على غيره ويكفي لكل شيء ، فالامثلة التي يعطيها في الغالب ، باقترابه من السلطة ، تميل نحو رأي اكثر تواضعاً . والذكاء العسكري له شكله الخاص به ، انه اكثر محدودية ووضوحاً ، واكثر مباشرة وديناميه ، وفي المكان الذي يوجد فيه فان قيمته ليست موضع جدل . وأعترف ايضاً انني كنت اتفاهم في الغالب مع الضابط المحترف افضل من المدني الذي يرتدي اللباس العسكري . فالمحارب ذو التقليد والرسالة ليس عادم الانسانية عادة ، انه يقتل بدافع الوظيفة وليس بدافع السرور بالقتل ، ولا يسير الى ابعد من اللازم ، ويلعب الحرب كلعبة خطرة يضع فيها رهناً كبيراً ، ولكنه يحترم القواعد بقدر الامكان . ولم يكن مونتاني مخطئاً بقوله : ان الفظائع في الحرب هي في الغالب من عمل « ضباط العفش » . وليس بدافع العداوة للجيش اذن سأفشي بعض العادات التي أدخلت فيه بشكل يدعو الى الكدر ، بل بدافع التعاضد الشريف : ان رجالا يرتدون بزة ضابط فرنسي ، ويمارسون التعذيب او يأمرون به ، لا استطيع احتمال عملهم هذا لان تلك البزة توحي الي الاحترام والحب . فهل يجب ان يأمرني الاحترام والحب بالسكوت ؟ . لا اعتقد ذلك . فالمدافعون الحقيقيون عن الجيش منذ خمسين سنة لم يكونوا الوطنيين الغامضين الساعين بضراوة ليخفوا خطأً قضائياً لا يشرفهم ، بل هم الاخلاقيون الحازمون الذين طلبوا اعادة النظر بقضية دريفوس لانهم لم يرضوا ان يرسل القادة

الفرنسيون بريئاً الى جزيرة الشيطان .

وليكن مفهوماً أيضاً انني لا اكتب لتغطية عملية سياسية واسقط الاعتبار عن المدافعين عن الجزائر وادفع الى اهمالها .

فالفضيحة ليست ابداً ، بنظري ، في وجود جيش فرنسي في افريقيا الشمالية . فأمام محاولة نزع ملكية عنيفة تهدد مليون فرنسي بحياتهم وممتلكاتهم وتهدد فرنسا في وضعية أساسية ، ما من حكومة تستطيع سلوك طريق المفاوضات قبل ان تضع على الطاولة قوة حربية تستطيع ان تبرهن للخصم انه لن يربح بواسطة القوة ، الا اذا كانت المفاوضة هي التسليم . اما ما يستوجب الذم ويدعو الى الحزن فهو روح من القساوة والانتقام في سلوك الحرب ، بعيدة عن تهيئة اصلاح ذات البين وتجعل هذا الاصلاح اكثر صعوبة . واسرع بالقول انه لا ينقصنا جنود وضباط لفهم ذلك وللتفكير ان من الافضل مد الجسور لا تعميق الحفر ، وكل ما حصلنا عليه من عمل ايجابي كان سببه العودة الى اسلوب ليوتي الانساني البناء وليس الحديث عن تقنية التخريب والارهاب العزيزة على قادة جيش نابليون الثالث . وهناك سبب آخر للتصريح بذلك ، ولرفض الفكرة القائلة ان « اعادة السلام » يجب ان تفهم بالرجوع الى الكلمة الشهيرة القائلة : « يخلقون السلام حيث يخلقون العزلة » . فهؤلاء الذين قال عنهم تاسيت ذلك كانوا من الجرمانيين البرابرة ، وقد اعتقدت ، ولا ازال اعتقد ان المهندسين والمعلمين الرومان يقدمون لنا امثولات فضلى للاحتفاظ بالوجود الفرنسي في

المغرب ...

اني مقتنع تماماً : انه ما من فرنسي واع للمصالح الشديدة الخطورة ، ولحقوق فرنسا وواجباتها يستطيع الا ان يهتم بوجودها في ارض افريقيا . وليس هناك من خلاف الا على طريقة فهمها ووسائل الاحتفاظ بها . وما من انسان يستطيع الشك في انتهاء التاريخ الاستعماري : فأوروبا لا تستطيع ان ترفض للشعوب الحرية التي حملت اليها بذارها . ولكن تبقى بعض روابط انسانية ، نسيها التاريخ ودعتها طبيعة الاشياء ، لا يجب قطعها، ويتعلق الامر بتقويتها على صعيد الثقافة والاقتصاد والمصالح العامة . واولئك الذين ندعوهم « عصاة » في الجزائر يتبعون طريقاً معقولا حين يطالبون بنظام سياسي يعترف فيه بالشخصية الجزائرية ، ولكنهم يتورطون بدورهم في نزعة قومية ، عاطفية ، عقيمة ، مسيئة كغيرها ، حين يريدون هذه الشخصية الجزائرية مقتطعة من فرنسا : ان الادارة الفرنسية في الماضي هي التي صنعتها ، والتعاون مع فرنسا في المستقبل القريب هو الذي يقدم لها حظاً افضل واكثر طبيعية في الاستمرار والنمو . ولا يعوز النفوس ، في اليمين كما في الشمال لتدافع عن ان الشعوب التي لا مستعمرات لها ، كالمانيا وسويسرا والدول السكندينافية ، لها موقف في الحياة اسمى من موقف فرنسا : انهم يستنتجون ان على فرنسا ان تجتمع على حدودها المسدسة السعيدة ، وتتمتع بملكها العائلي . ولكنني اعتقد ان هؤلاء مخطئون . ان بينتهم الاقتصادية صحيحة تقريباً ولكن بينتهم

التاريخية خاطئة بالتأكيد . ان لكل امة مصيرها ونسقها ، ومصير فرنسا ونسقها ليس في الاحتباس والانطواء . فهناك اعلام صنعت لتخفق في جميع رياح العالم ، وسوف تذبل اذا بقيت مغروسة في حقل مربع لسياسة كثيرة الاحتياط متشائمة . والعلم الفرنسي يجب ان يرفع ايضاً في الصراع الوقتي اشارة قيمة مدنية مرتبطة بفكرة فرنسا نفسها: والا فسنضطر الى الاحمرار خجلاً من انتصاراتنا العابرة وان نتهيب ، عدا ذلك ، انحداراً نهائياً كلياً في الساعة التي ستلعب فيها قوى التاريخ ضدنا بشكل لا يرد .

وأريد ان اقفل هذا الاستهلال على تذكار . فقد كان ذلك في ايار ١٩٤٥ حيث اطلق سراح المعتقلين في لوبك على ايدي طليعة من جيش مونتغومري . وقد اكتشفت سيارة لأربعة او خمسة رفاق أتاحت لنا ان نجمع الادوية وننقلها الى برجن - بلسن حيث كان التيفوس والزحار يقتلان المنفيين بالمئات كل يوم . اننا شاهدنا هذا المنظر الراعب وجمعنا شهادات محرقة عن هذا الجحيم . واستطعنا في المساء ، في مدينة سل Celle الصغيرة ، ان نجد مأوى عند الالمان ، وما من شك في انهم كانوا اناساً فضلاء يبذلون جهدهم ليكونوا لطفاء معنا . ولما كنا مشمئزين من فظاعة ما اكتشفناه فقد اجبنا على تحببهم بالتوبيخ العنيف . كيف ارتكب شعب متمدن هذه الجرائم او افسح المجال لارتكابها ؟ وكيف استطاعت مدينة ان تستمر في العيش على بعد بعض الكيلومترات من حقل الآلام والقتل هذا . وبدا

محدثونا اقل انزعاجاً مما تصورنا ، فقد اجابونا بخلوص نية انه ما من مدني استطاع الاقتراب من المعسكر ، وان الحديث عنه كان ممنوعاً ، ولا شك في انهم ادركوا ان شيئاً ما قد جرى هناك ، ولكن البوليس كان في كل مكان . ثم ان الشعب الالماني كان يشعر بآلام هذه الحرب واخطارها — كلا لم يكن مسؤولا عن ذلك ...

كان كل شيء غير خاطيء في هذا الدفاع ، ومع ذلك فقد بقي العمل : ان سلطة مسيخة استطاعت تنظيم اذلال وابادة الوف وملايين من المخلوقات البشرية في الصمت التام لشعب بأكمله . وهذا السكوت نفسه يشكل مسؤولية ، انها ليست ذاتية وشخصية بالتأكيد ، ولكنها ايجابية جماعية . وقد قلت لنفسي حينذاك : « لعل الناس الفضلاء في فرنسا لا يقعون تحت تهمة اخلاقية من هذا النوع ! » . شكراً لله ، فليس لفرنسا ان تنظم معسكرات للتخريب وتمارس الابادة . ولكن اذا وجد فرنسيون يتقلدون سلطة او قيادة ويرتكبون أعمالا ضد حقوق الناس وضد الانسانية ، واذا اختبأ الرأي العام في خزانة وقال : « لا نريد ان نعلم » . او تحترس وراء واجب وطني : « انها الحرب ! ولا يجب قول شيء يساعد الخصم ويزعج الجيش » — فانني اقول اننا نتحمل مسؤولية سياسية واخلاقية ، هي بالفعل اقل ثقلا من مسؤولية الشعب الالماني امام ما فرضته النازية ،

ولكنها مماثلة لها بالطبيعة [1] . ولكنني ارفض ذلك واقول بمزيد من الصراحة انني املك البرهان على ان الاعمال التي أعترض عليها ليست اخطاء اخلاقية فقط ولكنها اخطاء سياسية يصيب الامة منها ضرر مزدوج : في سلامة ضميرها وفي قوة وضعيتها .

ان مونيه قد مات ، وليس في جيلنا من يملك قوة صوت وجلاء نبرة بيغي Péguy وبرنانوس . لقد بقي تقليدهما متأصلاً في الحجارة الطباشيرية لفرنسا الانسانية المسيحية . وبقي علينا واجب محاولة القول ببساطة ما قالاه أفضل منا .

١ لقد نقل روبير داركور هذه الكلمة عن استاذه في جامعة المانية بصدد وجود معسكرات الابادة : « لقد فضلنا الا نسير الى اساس الشيء » وذكر روبير داركور ايضاً هذا الاقرار للكاتب الالماني ر . شنيدر : « كنا نطيع عامل خوف أفسد منا الضمير . اننا لا نحلم بانكار غلطتنا الخاصة . »

عودة التعذيب

ان ممارسة التعذيب هي احدى مخازي الانسانية ، ويمكن الايضاح انها صارت احد عيوب المدنية الغربية التي ظلت ترضى بها باستمرار حتى نهاية القرن الثامن عشر ، واستعيدت في القرن العشرين تحت اشكال يكثر الاعتراف بها او يقل . ان امكان وجود اناس يحترفون تعذيب انسان مثلهم ، وهو عار ، منزوع السلاح ، مقيد ، ليستخرجوا منه اقراراً بجريمة يمكن انه لم يقترفها ، او لينتزعوا من ضميره سراً ليس مديناً به الا لله ، لهو امر يفوق التصور ، لأن هذا المعذب لم يكن شريراً او عدواً للقوانين ، بل على العكس ، فهو خادم فاضل ، عامل في المجتمع ويتناول اجره منه للقيام بمهمته المشؤومة. واذا كان هناك رجال انقياء الكف ، وحكام مدافعون عن النظام ، اشراف في حياتهم العامة ، واجلاء في حياتهم الخاصة ، يهبطون من مراكزهم ليروا متهماً يمكن ان يكون بريئاً ، قد مُدد على مركبة حديدية

للتنكيل او حشرت رجلاه في آلة العذاب ، ويعذب بالماء والنار ، فماذا يبقى للرد على الفوضويين الذين وضعوا في القانون سبباً ليسوموا الانسان اسوأ المظالم ؟. وحين يطوح بنا التفكير الى ان القائمين بالتعذيب قد قاموا احياناً بعملهم بطلب كهنة المسيح ، بحضور رهبان بيض او سمر كانوا في نفس الصباح المخصص لتقديم الذبيحة الالهية قد شرحوا الانجيل واستعادوا ذكر حادثة الصلب ، فكيف لا تسيل الدموع على ذلك الاخفاق النسبي لفداء البشر وعلى مناقضة كلمة الله العذبة التي تحولت الى تبرير القساوة ؟..

واذا استثنينا الشعب اليهودي ، فان شعوب عـــالم البحر المتوسط ، في العصور التي ازدهرت فيها اجمل ثقافاتها ، قد عرفت ، ورضيت ، وطبقت التعذيب الجزائي او الاستجوابي . اما الاغريق فقد احتفظوا به للأرقاء والغرباء ، وقام به الرومانيون وطبقوه على الارقاء بأمر من رب العائلة كآلة للنظام المنزلي ، منتظرين ان يضعه القانون في يد حاكم المدينة كوسيلة معقولة لاقامة الدليل : لقد برره قانون جوستنيان ونظمه كإجراء جزائي ، وكان الرجال الاحرار معفين منه حتى نهاية عهد الجمهورية . وهذه الوسيلة التي اعتبرت خسيسة رئي انها لا تلائم سوى الطبقة المنحطة من الناس. ولكن ما ان عززت الحكومة وسائل عملها وجعلت مبدأها فوق الطبيعة بتأليهها اميرها ، حتى رأى الفرد ان آخر ما يعتصم به قد سقط ، كما يحدث في جميع المرات التي ينتقل فيها المطلق الى المجموع ، والجريمة ضد سلامة

الدولة التي القت المواطنين انفسهم تحت ارجل المعذبين العامين . وتعريف الجناية ضد الملك ، المتروك امرها للمستبد بالسلطة ، بشكل وحشي في النظام الامبراطوري الاستبدادي ، جعل من الممكن ان يصبح المتنورون الكملة انفسهم طريدة التعذيب : فلا افلاطون ، ولا ارسطو ، ولا شيشرون ، ولا بلين ، ولا سينيك قد احتجوا على المبدأ اذا حدث لهم ان رثوا لشدة الفظاعة في تطبيق التعذيب . ولكن ترتوليان قد دهش فقط لتطبيق اشكال من الاجراءات الجنائية المخصصة للحصول على الاعتراف ، على المسيحيين لارغامهم على انكار ايمانهم ، وليس بسبب الرجوع الى هذه الاجراءات . اما القديس اوغسطين فقد انتقد التعذيب انتقاداً عابراً كوسيلة غير تامة للعدالة الانسانية ، ولكنه لم يرفض ضرورته .

وأول قضاء نظري على التعذيب معروف في العالم المسيحي ، ينسب الى البابا نقولا الاول في سنة ٨٦٦ للرب ، في أجوبته على استشارة البلغاريين Responsa ad Consulta Bulgarorum ، وهذا النص الحافل الواضح يستحق ان ندرجه هنا : « تقولون ، انه حين يجري عندكم القبض على سارق او قاطع طريق ، وينكر ما نسب اليه ، فان القاضي يضربه على رأسه ويلدغه بالنار على خاصرتيه الى ان يعترف بالحقيقة . ولكن لا القانون الالهي ، ولا القانون الانساني يمكن ان يقبلا بهذا العمل بأي شكل من الاشكال ، لان الاعتراف يجب ان يكون تلقائياً ، ويجب ان لا يغتصب بالعنف ، بل يلفظ بملء الارادة . وثم ، اذا كنتم

بعد استعمال كل هذا العذاب لم تتوصلوا الى اكتشاف اقل الاشياء التي تتهمون المتهم بها ، الا تشعرون بالعار وترون انكم تحكمون بشكل يخلو من التقوى ؟ وبعكس ذلك ، اذا تغلب الالم على المتهم وأقر بجريمة لم يقترفها ، فعلى من يقع عار هذا البغي الخطير ان لم يكن على ذاك الذي اجبر المسكين على الكذب ؟ اتبذوا اذن هذه الاعمال واقضوا قضاء مبرماً على ما فعلتموه حتى الآن بدافع الجهل » . لا يمكن القول افضل من ذلك ؛ وانها لفكرة كئيبة تعمر رأس من يلاحظ الامور الانسانية ، ان يتأكد من ان الاوروبي في القرن العشرين قد اصابته لسعة سوط هذه التوبيخات المرسلة الى البلغاريين قبل السنة الالف — ومع فرق التسلح بالتقنيات العلمية فقد وجد عذاباً اكثر فعالية من ضربات الدبوس على النقرة والمسامير المحماة في الخاصرة . وفي خطورة حالته التي هي من صنع مدنيته الفخور ، فانه لا يستطيع الاعتذار بجهله المبادىء القانونية والاخلاقية التي خرقها .

ان تأنيب نقولا الاول كعمل شريف للروح هو افضل منه عاملا تاريخياً : من الممكن انه ارجع العادات السيئة الى الوراء محلياً ، ولكنه لم يمنع ان يفرض التعذيب نفسه على السلطة القضائية والمدنية ، وبعد قليل على السلطة الاكليركية . تناقض : ان القانون البربري لم يعرف التعذيب بل احكام الله ardolies

فقط ، والقرون الوسطى العليا قد شاهدت كسوفـــه ، ولم يستطع المقاومة الا في البلاد الواقعة تحت التأثير الروماني كاسبانيا الفيزيقوطية [1] وكان ذلك في القرن الثاني عشر ، حيث النهضة الاولى واكتشاف الحقوق الرومانية التي جعلت الاقرار برهاناً على الجريمة ، والبحث عن الاقرار كهدف للاجراءات الجنائية . والتعذيب تبع ذلك . وبينما تخلت الكنيسة عن استعمال احكام الله التي اجتاحت المحاكم الاكليركية نفسها ، والتي كان الحقوقيون المقلدون للرومان لا يريدونها ، فانها رضيت باستعمال التعذيب مع قطاع الطرق واللصوص ، بشرط ان يطبق « من ناحية بتر عضو وخطر الموت » . وخطا اينوسانت الرابـع خطوة كبرى فسمح للسلطة المدنية باستعماله ضد الهراطقة . وآخر قبس للروح الانجيلية في هذا الضلال الدجوي ، فقد منع ، تحت طائلة العقاب ، دخول غرفة التعذيب على الاكليروس ، وعلى قاضي التحقيق نفسه ، ولكن هذا المنع قد رفع بواسطة اسكندر الرابع سنة ١٢٦٠ واوربان الرابع سنة ١٢٦٢ . واتخذ التحقيق لمدة مائتي سنة ، هذا الوجه الراعب الذي عرض الكنيسة لحكم العصور الصارم . وما من شك في انه يمكن الاستشهاد بقسوة الطباع ، وكذلك كان الاب جورنه على حق حين كتب : « كيف استطاعت هذه البربرية في الاخلاق الجزائية ان تمتزج

١ نسبة الى قبيلة من القوط تدعى فيزيقوط قد اجتاحت بلاد الغـــال سنة ٤١٢ بقيادة احد رؤسائها المدعو أتولف . — المعرب —

بكثير من الرقة في العواطف » . لنعد بالتفكير الى ذلك الحنو الانساني البديع الذي ينير لوحات الفرنسيين البدائيين في القرن الخامس عشر . ففي العصر نفسه ، وفي الشعب نفسه ، كانوا يستعملون مسند التعذيب Chevalet والصاري الذي يُقذف بالمذنب من فوقه الى البحر [1] L'estrapade »

في مجتمع غير متطور تطوراً كافياً ، يجب تجريم عدم التحديد الخطر للروحي والزمني اللذين يميلان الى التواطؤ على فرض وحدة المعتقد بقوة السيف والتي يرى فيها الامير مصلحة النظام العام والاسقف مصلحة الحقيقة .

وبدأ الفرد مع عصر النهضة بالمطالبة بحقوقه ضد المجتمع ؛ انه يريد ان يكون حراً برأيه ومعتقداته . وظلت الطباع قاسية ، بحيث يحدث ان هذه النزعة الفردية تعود الى إرادة القوة ، والى النزعة الاخلاقية القاسية عند الامير ، والى تبرير الواسطة بالغاية والجريمة بالمجد . ومهما كانت مآرب مكيافيلي ، فان المكيافيلية تلائم هذا الافساد للضمير والذي لن ينتهي من إغراق الغرب بالدم . وفي اثناء ذلك فان النزعة الانسانية ، بميلها المسيطر ، حيث تبدو انها خالقة قيم جديدة ، قد جلبت العقل ، والانصاف وسمو القوانين غير المكتوبة ، واحترام الشخص : ان إيراسم ، وتوماس مور ، وكالفن ، وهوتمان ، وجان بودان ، وسواريز

١ شارل جورنه ، « كنيسة الكلمة الالهية المتجسدة » .

قد حاولوا ان يبنوا ، بمواد متنوعة وعلى مفترق التقليد المسيحي والحكمة القـــديمة ، مدنية تحتل الروح فيها مكان الصدارة [١] : والاجراءات الجنائية لم تلطف بشكل سريع الا في انكلترا حيث كانت حرية الفرد مكفولة في المتهم بكثير من الاحتياطات التي نالت اعجاب فقهاء القانون ، وقد ظل التعذيب آلة للتثقيف في كل مكان ؛ ويحدث ان يضاف الى عقوبة الاعدام كمضاعفة للعقاب في حالة الجريمة ضد الملك . ولنعد بالذكر الى المـــذبحة الساحلية التي رافقت تنفيذ حكم الموت في داميان سنة ١٧٥٧ . واصبح احتجاج الاخلاقيين عاماً : فهناك يسوعيون امثال فونسي وليمان ، وبروتستانتيون امثال غريفن وبيكر ، ومونتاني في « محاولاته » ، ولابروبير في « طباعه » وراسين في « المتقاضون » قد اعربوا عن اشمئزازهم من قساوة العـــدالة ، وظهر قلق الانسانية في بعض اوامر لاموانيون لاجـــل تنظيم استعمال التعذيب ، وفي « تعليمات المجلس البابوي في الكرسي الرسولي » سنة ١٦٣٧ لاجل تخفيف دعاوى السحر . وهكذا تهيـــأت الحركة الكبرى التي ستفضي في القرن الثامن عشر الى نصوص مونتسكيو وبيكاريا الحاسمة . ومن هذا الاخير ، فان « بحث الذنوب والعقوبات » هو نموذج كتاب يحتوي على فكرة تؤكدها

١ راجع فيما يتعلق بهذه النقطة ، بيير مسنار في كتابه : « تقدم الفلسفة في القرن السادس عشر » . بوافان ، ١٩٣٦ .

قمم الضمير الاخلاقي الصافية وتعمل في التاريخ باقامة القوانين . لقد وضع بيكاريا ، بقوة ، المبادىء المرتبطة بروح مدنية إنسانية : ان للانسان الحق في ان يكون محترماً وهو متهم ، بحيث يجب الاعتقاد انه بريء ، وكذلك وهو مذنب : والمذنب يجب ان لايضايق في جسده ، فهو حر في الاعتراف ، وعقابه بواسطة المجتمع ، يجب الا يكون مماثلاً للانتقام . وكانت السويد سنة ١٧٣٤ ، وفريدريك البروسي سنة ١٧٤٠ قد أبطلا التعذيب ، وتوصل لويس السادس عشر الى ذلك ، بناء على نصيحة مالرب ، في الرابع والعشرين من آب ١٧٨٠ بمناسبة عيده ، ثم فرض على معارضة البرلمان الامر الصادر في الثامن من ايار ١٧٨٨ ونرى من الملائم ان نسرد الاسباب : « ان تفكيراً جـديداً قد اقنعنا بخطل وسيئات هذا النوع من التجارب الذي لا يقود الى معرفة الحقيقة ابداً ، ويطيل عادةً عذاب المتهمين دون ثمرة ومن الممكن في الغالب ان يُضل قضاتنا بدلاً من ان ينيرهم . » وهكذا احدث في القوانين حركة صاعدة من الضمير الانساني تبرر تماماً تلك النظرية السعيدة لقـــانوني معاصر هو الاستاذ شاربنتيه : « ان الاخلاق هي ارث المبادىء المسيحية المنقولة من مكان الى آخر بواسطة علمنة الحقوق . »

واذا كان لكلمة « تقدم » معنى فان أنسنة الاجراءات الجزائية والغاء التعذيب هما هذا المعنى . وقد استطاعت شعوب الغرب

طوال قرنين تقريباً ، ان تقوم بجرائم اخرى ولكنها تجنبت على الاقل ، في قوانينها وطباعها ، التنكر لهذا الفتح الاساسي . فمن الذي يستطيع اليوم ان يؤمن بخرافة التقدم المستمر اللازم ، ومن الذي يؤمن بطموح الانسانية المحتوم نحو الافضل ، وبصبغ التاريخ بصيغة روحية دائمة بينما هناك كثير من الامثلة عن العودة الى التردي في اخطاء الماضي ، وعن صعود قوى الظلام ؟ على ان ما يبقى صحيحاً هو ان الطبيعة البشرية تقدمية بشكل افتراضي ، ولكن الذي يلعب لعباً حسناً او سيئاً ضد استمرار ميولها الشائنة وضد ثقل المادي التاريخي ، ويسبب في نهاية الحساب تقدم المدنية او تقهقرها ، هي الروح العاملة في دائرة النار حيث تكون حرة : في الضمائر الشخصية .

ان نقل التاريخ ، في عودة التعذيب ، هو الظاهرة التي يمكن تمييزها بهذه الصيغة : إشراك الكائن الانساني في المجتمع . وهناك عوامل كثيرة عملت على إحداث ذلك : مجيء العصر الصناعي ، وخلق مدنية لعامة الناس ، وتعقيد الأجهزة الاقتصادية والادارية ، وتقوية جهاز الدولة ، ورد فعل عفوي ضد ازدياد النزعة الفردية . وفي نهاية هذا التطور ظهرت الانظمة الاوتوقراطية والفاشستية ، والعنصرية ، والشيوعية ، ولكن المجتمعات ذات الروح المتحررة ، والديموقراطيات البورجوازية لم تنفلت منه ابداً . ومنذ ما انتقلت القيمة من الفرد الى المجموع وان الخير والشر لا بد ان يقوما بالنسبة لمصلحة اجتماعية ، فان الفرد رأى ،

بشكل لا يمكن تجنبه ، تناقص ضمانات استقلال ضميره واتساع حريته في العمل . انه لا يكون بريئاً الا بموجب قرار السلطة وليس له اية حقوق اذا صرح عنه او ظن به انه مذنب . والحاكم الذي يستجوبه او القاضي ليس له من واجب آخر سوى إزالته من حيث انه قوة خادعة او متمردة : ان كل قسر له ما يبرره ضد من لا يملك شيئاً خاصاً يدافع عنه .

وبالتأكيد ، اذا اعتمدت النصوص فليس هناك من شيء تغير في مناخ التشريع الفرنسي : ان دور البوليس العدلي في البحث عن الجرم يظل خاضعاً لمبادىء تكفل حقوق المتهم الشخصية . وقد كتب غارو ولابورد – لاكوست في كتابهما « شرح قانون الجزاء » (المادة ١٨٣٨) : « يبدو لنا انه ينتج من المادتين ٨٧ و ٩٠ من قانون ٢٥ اذار ١٩٣٥ ان ضباط وافراد الشرطة العدلية لا يستطيعون ان يمارسوا ، خارج نطاق تعليمات تمهيدية منظمة ، عمليتين اساسيتين في البحث عن الادلة : استجواب المتهم و « تفتيش » المنازل والقاء القبض . ومن ناحية اخرى فان القانون ، حتى في العمليات المسموح لهم بها ، لا يعطي ضباط وافراد الشرطة العدلية الحق باستعمال القوة والقسر للحصول على الادلة او البحث عنها . » والمادة ٩٧٩ من الكتاب نفسه تقرر القواعد الاربع المشتركة في جميع الاستجوابات :

— يمنع في حالة عدم جدوى النظام العام للاستجواب ان يحلف المتهم يميناً ليقول الحقيقة .

— يعترف للمتهم بحق رفض الاجابة .

— يمنع على الحاكم المستجوب ان يحصل على الاعتراف بواسطة وسائل غير صحيحة « كأن يخفي شخصيته مثلاً او صفته ليتجنب حذر المتهم . فالاعتراف يجب الحصول عليه بواسطة استجواب شرعي ، ويجب ان لا يحصل عليه بالحيلة او ان يغتصب بواسطة العنف الجسدي والاخلاقي . »

— واخيراً ، صفة الاقرار بالمادة الجرمية ، الذي يمكن تجزئته دائماً والرجوع عنه .

وبكل اسف ، اذا كانت النصوص شيئاً فان الاعمال شيء آخر ، وذلك حينما تتخذ بعض العادات ويرسخ سوء الاستعمال في الطباع بعد ان قضي عليه القانون ، فيتسامح به اولئك الذين يطبقونه . ولا فائدة من ذكر بعض الاعمال التي يعرفهـــا كل الناس وقد تكشفت اثناء المحاكمة وتعممت بواسطة الفيـــلم والكتاب : وستكفي الملاحظة الى ان ل . لاميير في كتابه « بحث نظري وعملي في البوليس العدلي» لم يهتم بالدفاع عن النظرية القائلة — بعكس روح قانون الجزاء — ان الاقرار هو البرهان بالذات ، وانه يجب تنظيم الاستجواب في افضل الشروط لأجل الحصول عليه (بتجنب حضور محامي المتهم مثلاً) ، ولكنه يبرر استعمال القسر الجسدي ، الذي يريد تخفيفة ، ممـــيزاً « التعذيب المباح » من التعذيب غير المباح . وحين ننتقل من البوليس العدلي الى الـ D.S.T ، والى دوائر مكافحة الجاسوسية

التي تدعوها وظائفها الى العمل في السر وخارج كل حماية مشروعة نتأكد انه لم يبق شيء من روح بيكاريا ومن فتـــح المدينة الشريف [١] .

١ — استعملت بشكل واسع ، في كتابة هذا الفصل ، الكتاب الجريء الذي وضعه الاستاذ ألك مللور بعنوان « التعذيب » والذي كتب مقدمته ريمي Remy (الافاق الادبية ، باريس ، ١٩٤٩) . وقد ذكر الاستاذ مللور ، بين النصوص الرئيسية ، المنشور رقم ٦٢٦ الصادر عن وزير الداخلية بتاريخ ٤ تشرين الاول ١٩٤٧ الصادر عن المديرية العامة للامن الوطني ، واللذين يتضمنان الاعتراف الرسمي باعمال مشينة عملا ضدها . اما حول تعميم التعذيب والمبادىء التي يجب ان تعاكسه فقد قرأت في عدد تموز ١٩٤٨ من « المجلة الجنائية والبوليس الفني » مقـــالا للسيد ج . غرافن استاذ الحقوق الجزائية في جامعة جنيف حول « التعذيب العصري » جاء فيه : « مما يبعث على الخجل ان نتذكر (وجوب القضاء على التعذيب الجسدي في الاستجوابات) اذا كان عصرنا لم يقدم تبرير هذه الردّة نحو عادات بربرية مخالفة للعدالة الحقيقية . انها اشارة خطيرة ان نرى التعذيب يعود الى الظهور وينتشر حولنا كدنس دامٍ . »

شرطة وعدالة

هنا تبرز مسألة علاقات البوليس والعـدالة ، وهي ليست بسيطة ، فالبوليس ليس العدالة ، انه لا يحاكم المذنب ، وهو يمنعه من فعل الشر اذا استطاع ، الامر الذي ليس هو قضيـة اجراء وحق ، بل قضية عمل وعنف ايضاً . وبعد ، فاذا اقترف الذنب او الجريمة فان البوليس يبحث عن المذنب ، ويوقفـه ، ويقوده الى المحكمة ، وهذا ايضاً عمل حيلة وقوة . ان الشرطي هو اقرب الى الجندي منه الى القاضي : في وظيفته ، ونفسيته ، واساليبه. ويرى السيد فاراليك مؤلف كتاب «مبادىء ووسائل البوليس الجنائي » ، ان الاشرار يؤلفون مجتمعاً عـــلى حدة ، وجسماً غريباً في الأمة ، و « جيشاً في الداخل » من المهم ان تدافع ضده عن نفسها بوسائل تتخذ من قانون الحرب . وما هو اكثر صحة من ذلك ، بينما الاخـــلاق العصرية ترعى الشركة بجميع اشكالها ، هو ان المجرم الفردي يميل في الغالب الى

الدخول في عصابة منظمة ، وفي محيط عصاة منظمين لهم عاداتهم ، ولغتهم ، وسلسلة رتبهم ، وشرفهم ايضاً . والصراع مفتـوح بين اللصوص وافرادالبوليس على صعيد هو صعيد العنف ويتفلت بالنتيجة من مواد قانون الناس الفضلاء ومن مستلزمات الاخلاق المشتركة : والبرهان على ان بين هاتين القوتين ما بـين جيشين وطنيين هو ان بعض المبادىء تنتهي الى فرض نفسها ، بان تكون «قانونية» من هذه الناحية او تلك ، وهو نوع من القانون العسكري الذي لا يلغي الشراسة بل المكر والخداع والروايات وعلى الخصوص الافلام البوليسية ، الـتي لعبت دوراً كبيراً في الوقت نفسه في انتشار رومنطيقية الجرائم وفي خشونة طبـاع البوليس ، تستخرج من هذه الحرب ، في ايام السلم ، مواضيعها ونتائجها بشكل لا ينضب .

ولكننا نري الصعوبة حينذاك . فاذا كان من مهمة الشرطي ان يطارد ويتغلب على خصم يتصرف بالقوة والحيلة ، واذا اخل بواجبه بتركه النظام العام عرضة لمجازفات الاشرار ، فكـيف يطلب منه ان يقود كفاحه وفقاً لقواعد تختص بالعلاقات المسالمة للناس الفضلاء والتي يخالفها الاشرار ؟. وكيف تطبق الاحكام القانونية والاخلاقية الناجمة عن احترام الشخص الانساني على افراد مجانين غاضبين لا يكنون هذا الاحترام لضحاياهـــم واخصامهم ، ولا لأنفسهم في الغالب ؟ ومن المفهوم حسب القانون ان كل متهم هو بريء ما لم تثبت ادانته ، وان استعمال العنف ممنوع لاغتصاب الاقرار ، وانه ليس للمحقـق الحق

ان يستعمل الكذب ليحصل على اعتراف . ويعترض افراد البوليس المدعوون واقعيين قائلين : ولكن اذا قبلنا هـذه الحواشي فاننا لا نقدم للقاضي اي مذنب ، باستثناء حالة الجرم المشهود . واذا القينا القبض على المذنب فاننا لن نتوصل ابداً الى شريكه في الذنب ، او الى الخيط الذي سيقودنا الى العصابة المنظمة . وهل سيمنع علينا استعمال الوشاة ، والشرطيين المتنكرين والنساء حتى لا تخدع السارقين ، ومن يسندهم ، والقتلة ؟ هذه هي الآلات الضرورية لعملنا ، ووظيفتنا تصبح وهمية اذا فرضت علينا اخلاقية لا يمكن ان تكون اخلاقيتنا لانها ليست اخلاقية الرجال الذين يطلب الينا المجتمع ان نقاتلهم .

لنعترف اولاً ان للحجة بعض الوزن ؛ انها تدخل في ذهنية مهنة . ومهنة الشرطي صعبة ، وخطرة ، وشاذة ؛ انها تتضمن خطر الموت ، وتتطلب فضائل هجومية اكثر مما تتطلب حساسية . وسوف يذهب الواقعيون الى القول : انها تتطلب من قوة الطبع اكثر مما تتطلب من رقة الضمير . ويضاف الى ذلك ان وجود زبائن عاديين من الاختصاصيين بالجنح والجرائم ، والذين يمكن ان يكونوا أبرياء مما نسب اليهم حالياً ولكنهم ملوثون بالاخطاء والعادات السيئة ، يجعل الجنوح الى احترام الشخص الانساني امراً صعباً ، فأي وسواس يمكن حدوثه اذا عاملنا ضمائر ملوثة بالشراسة والرفس بالحذاء ؟ ولكن تبقى حالة البريء الذي

اهين وسيم العذاب للاشيء . انها مجازفة خطرة ، ويبدو للمحقق انه يتحمل ذلك بصفته متهماً وهذا ما يجعله مقبولا . وما دامت وظيفة البوليس لم تتجاوز الحرمان التقليدي من التبغ والاستجوابات العنيفة نوعاً ، فبالامكان اغماض العينين والقول ان رتب مفوضية البوليس لن تمتنع ابداً ، من ناحية المنفذين المرؤوسين الذين تحتاج وظيفتهم الى ذوي عضلات ودمويين ، طرق العمل التي لا يتورط فيها إلا هم . والمصيبة هي ان هواء القرن النتن ، وقد اتلف الضمير الاخلاقي والقضائي ، فرض العادات السيئة في كل مكان وجعلها مشروعة في الاجراءات . وبعض الوسائل التي اخترعها البوليس الهتلري وانتشرت طوال عصر المحاكم الاستثنائية والاحكام السياسية العنيفة ، اصبحت سهلة الاستعمال — كالمصباح الكهربائي في العينين والاستجوابات الممتدة الى اكثر مما تحتمل مقاومة المتهم الجسدية ، هـذا اذا صرفنا النظر عن المغطس والتيار الكهربائي — واصبحت المعاملة البوليسية القاسية اكثر حدوثاً واكثر أذية . والفضيحة الاخيرة هي ان الظلم يرجى ان يصبح قانوناً : ان محكمة جنايات الجيروند بتبرئتها ثلاثة من افراد الشرطة في الثلاثين من نيسان ١٩٥٤ ، والمتهمين بضرب بائع التحف غرانجه حتى الموت اثناء الاستجواب رضيت على الاقل بالرجوع الى إجراءات القرون الوسطى في التعذيب ، ان لم تكن اثبتت ذلك كمبدأ ، وتخلت عن الاحتياطات الشرعية التي كانت تحمي حياة المتهم .

وفي هذا موضوع كبير للكآبة اذا فكرت فيه كمؤرخ للافكار والسجايا، لاننا نرى فيه ردة مرعبة. ان القرن التاسع عشر يبعد عن ان يكون نقياً، فقد تلوث بالدم في الحروب المدنية، وفي النضال الاجتماعي، وقمع الفتن القومية: دم عمال مصانع الحرير في ليون وعمال باريس، ودم رجال الكومون، ودم البولونيين الذين سحقتهم جيوش القيصر، ودم الاحرار الايطاليين الذين قتلهم امراؤهم الضعفاء بالرصاص او شنقوهم، ودم رجال القبائل ودم البوير. ومع ذلك فقد كان فيه من الاحتشام ما ليس في عصرنا: حتى عندما ادانت محاكمه الابرياء، وعندما لفظ احكاماً تتفاوت بتفاوت الطبقات، فقد احتفظ على الاقل بالروح الانسانية والمسيحية المدرجة في لوحة «اعلان حقوق الانسان» وفي قانون الجزاء المستوحى منها ليوفر التعذيب على المتهمين. ورغم احتجاج كثير من المحامين فقد احتفظ بمنع المتهم من الاختلاط بغيره، ولكنه ألغى شيئاً فشيئاً، بصدد المحكومين انفسهم، الاجراءات غير الانسانية، كسلسلة المحكومين بالاشغال الشاقة التي احتج عليها فكتور هيجو بعنف في «آخر يوم لمحكوم بالاعدام». ومهما كان فوتران Vautrin وجافرت قاسيين فانهما لم يفترضا ان بالمستطاع تعذيب الظنين.

واستيقاظ هذه القساوة البوليسية المنظمة بشكل مرتب في عصرنا، والتي أغضي عنها ان لم تكن شُجعت، له ايضاحات وليس هناك اعذار. فهل سيُعتذر بالدفاع عن

المجتمع؟ ولكن اين شوهد ان البلدان التي قاومت عدوى هذا العنف — ويجب القول انها البلدان الصغرى في الغالب وليست الكبرى — تعيش في نظام وأمن قليلين وتتألم من اشتداد موجة الجرائم؟ انا اقبل ان الوظيفة البوليسية تتطلب انتباهاً اكثر استمراراً واساليب اكثر شدة في امة كبيرة ذات حشد هائل يجب مراقبته، وفي مدن عميقة ذات زوايا مظلمة وابواب مزدحمة بالغرباء والمتمردين والمشبوهين. ولكن هذا ليس سبباً لقلب القواعد الاساسية التي تعطي الميثاق الاجتماعي قيمته وقوته، لأن خوف المجتمع من العوامل الطبيعية التي تحاول ان تشوشه في نظامه المنظور بواسطة مخالفة القوانين اقل من خوفه من الخمائر الروحية التي تفسخه داخلياً بواسطة افساد القوانين، انه مهدد بعمل اعدائه اقل من تهديده بدمار مبدئه.

ان مبدأ الأنظمة الاوتوقراطية هو افراغ الشخصي في الجماعي، واخضاع الفرد الى شكله الاجتماعي، والغاء الضمير المنعزل لمصلحة الضمير المتضامن، وفي انظمة كهذه، حيث مصلحة الجمهور تفوق او تطمس مصلحة الفرد، فليس من التناقض الوبيل، بل هو طبيعي ومنطقي، ان تعتمد الدولة على البوليس، وان يمنح البوليس كل الحق بالتحري والضغط على افراد يعتبرون صفراً بالنسبة الى مستبد ذي طبيعة سياسية. لماذا نوفر عليهم التعذيب اذا كان يتيح الحصول على اعتراف ووشاية مفيدة للمجموع؟ ولمَ التراجع

امام الحيلة والكذب ووسائل المباغتة الفنية اذا كان يمكن بهذه الوسائل استلال آخر سر للانسان وخدمة مشاريع مفوض البوليس » ؟ ولمـــاذا التنكر ايضاً لاستعمال البنتوتال [1] Pentothal والعقاقير [2] التي تشل الارادة وتجعل الانسان غير مالك نفسه فتضطره الى ان يكشف رغماً عنه كل خفايا ضميره ؟ وفي الحد الاخير ، فسيتوصلون الى ان يجعلوا من واجب البريء ان يصرح انه مذنب ، وان يعلن خطأ ما يعتقده حقيقة ، اذا كانت هذه التضحية بشرفه تريح الحزب او الدولة اللذين يجب ان يظهرا بمظهر المعصوم الذي لا يتطرق اليه الفساد في كل شيء . وكل هذا الذي يبدو مقيتاً امام حكم فلسفة السمو الروحي وحيال حساسية انسانية ، هو على الاقل تسلسل منطق متماسك لا يقبل الجدل ، اذا كان الاجتماعي هو كل شيء .

ولكن نحن المتبجحين بانماء ولاية الروح وتلك النزعة الانسانية في المدنية المسماة غربية ، ندعي بوضوح اننـــا نعيش في قلب عالم وفي نظام حيث المبدأ المعترف به من الحق والاخلاق يظل القيمة المطلقة للشخص كضمير و كحرية . وليس صحيحاً ان تأكيد هذا المبدأ يستلزم استدعاء الفوضى ،

١ مخدر يصبح المريض تحت تأثيره غير قادر على مراقبة اقواله . — المعرب —

٢ راجع ، حول هذه المسألة ، دراسة جان رولان القيمة بعنوان « عقاقير وبوليس » .

لأننا نعلم فضلاً عن ذلك ان الانسان هو اجتماعي بحـــكم الطبيعة ، وان إخلاله بالميثاق الذي يجعل النظام ممكناً يجب ان يمنعه الدرك او يستصوبه القاضي . ولكن اذا كان ممثل القانون ، المجهز بوسائل القوة ، قد سمح له ان يقيد يدي من يشوش النظام العام بواسطة القوة ، فانه لن يعرف ان يعتدي على قيمة المسيء الشخصية بان يستولي على ضميره وينتهك جسده [1] ، دون ان يحطم بدوره الميثاق الاجتماعي . ان القاتل لم يقتل سوى انسان ، وهي جريمة مرعبة . ولكن الشرطي الذي يعذب المتهم ، حتى لو كان مذنباً ، وبالاحرى اذا كان بريئاً ، ينتهك فيه جوهر الانسانية ، وهو يفعل ذلك كحاكم بنوع من التفويض الاجتماعي ، الامر الذي يعطي عمله صفة انتهاك صارخ للحق ويعود الى تقويض المبدأ الروحي وقطع رباط التحالف مع المجتمع .

وما من شك في انه يستطاع وضع مصير الشرطي في الضوء الفاجع الذي وضع فيه جوزيف دي متر الجلاد : ان الصفة غير الانسانية لوظيفته سوف تكون علامة نوع من اللعنة الالهية ، تثقل على الانسانية الخاطئة التي لا تستطيع ان تلغي وظيفة كهذه دون ان تهدم نظاماً ضرورياً ، ولا ان تنظر اليها دون حركة

١ ان مبدأ احترام المسيء كشخص حي ، والمقبول عموماً من القانون الغربي ، يستدعي منطقياً الغاء نظام الزنزانة الذي هـــو نوع من الحكم بالانهيار العصبي والجنون . اما فيما يتعلق بعقوبة الاعدام فأن المسألة اكثر تعقيداً من ان ندنو منها مواربة .

طبيعية من الرعب . وامام تناقضات الشرط الانساني وتصادم الحقوق الناتجة عنه ، ففي ذلك محاولة للفيلسوف في ان يرتمي في التناقض ، وان يبرر عدم الرحمة إما بأمر سري لله ، واما بحادث محتوم طبيعي : فالاكليركي تحت السلاح ، والجندي الذي يجب ان يقتل ، والمتمدن المضطر الى ان يجعل نفسه بربرياً باسراعه الى بربرية الحرب ، مضطرون الى تقديم مبررات لهذا النظام ، انها ذات قيمة نسبياً ولكن من الخطر الاقتناع بها .

اما فيما يتعلق بوظيفة الشرطيفان هذه المبررات غير مجدية : ما من شيء يضطرنا الى تعبئة غيبية رومنطيقية لايجاد اعذار لطراز شرس ينبع من طبيعة الاشياء اقل مما ينبع من مطاوي الضمائر السيئة التي تنتج سجايا سيئة . واذا قبلنا ان عمل البوليس يدخل في شكل حرب اجتماعية لا يمكن فيها تجنب استعمال القوة فلا يجب الاستنتاج من ذلك ان هذا الاستعمال لا يمكن ولا يجب ان يكون محدوداً بمبادىء الاخلاق والقانون : فالحرب نفسها لها قوانينها ، وليس كل الضربات مسموحاً بها .

ومن الممكن الاعتراض ان زلة الاجراء الجنائي ذي الاساليب القاسية واستعمال التصرف السيء للحصول على الاعتراف او الوشاية لهما اليوم صفة التعميم بحيث يجب ان نرى فيهما احدى تلك الضرورات التي يفرضها تطور الاشكال الاجتماعية وشروط الحياة ، وليس انقراضاً للضمير الاخلاقي والقضائي . صحيح ان العمل يبعد عن ان يكون فرنسياً صرفاً ، ومع ذلك ، باستثناء

الولايات المتحدة ، حيث « الدرجة الثالثة » لها قيمة مؤسسة وتشبه تماماً المضايقة الجسدية التي يمارسها الشرطي على المتهم ، فمن الثابت ان هذه العادات تحتل مكان الصدارة في الحكومات ذات النموذج الديكتاتوري (الارجنتين في عهد بيرون لم تنج من ذلك) اكثر من الديموقراطيات الحرة ، وفرنسا بين هذه الديموقراطيات ليست الاقل تعرضاً . وهناك بلدان اخرى كانكلترا ، وهولندا وسويسرة ، والديموقراطيات السكندينافية تبدو اكثر تحسباً ، والنظام العام فيها لا يبدو اقل ضمانة .

ولأنتهي من هذه النقطة اريد ان اسرد حالة نموذجية بشكل عادل : انها فتوى للمحكمة العليا في بون ، وقد نقضت حكماً جزائياً مبنياً على اعتراف حصل عليه بشكل مخالف للشرع بواسطة طاولة الاستماع ، ان سر المذنب قد اخذ منه على حين غفلة بواسطة خداع قام به البوليس .

وقد جاء في الفتوى انه ليس للقاضي الحق بأن يهتم به . ان في دقة هذا النظام يمكن التعرف الى عقلية التمدن .

جيش وبوليس

من الظاهر ان الاخلاق الشخصية والحق المتولد منها يجعلان حدوداً لاستبداد عمل بوليسي ، حتى لو كان موجهاً ضد مجازفات الناس العادمي الاستقامة . وبالاحرى فان هذا الاستبداد يبدو غير محتمل حين يمارس ، في زمن الحرب ، ضد اشخاص مستقيمين اخلاقياً ، خاضعين لقوانين بلادهم ، وليس لهم ما يلامون عليه سوى انهم اعداء وانهم يتصرفون تصرفاً عدائياً . وفي هذه الحالة فان الامر لا يتعلق بحرب داخلية اهلية تقوم بها القوة المتولدة من السلطة السياسية ضد جماعة مخربة للمجتمع ، بل بحرب توقف شعباً ضد آخر ، وقوة دولة ضد قوة دولة اخرى . وفي ظرف مشابه نرى من الطبيعي ان يحارب جيش ضد جيش ، وجهاز عسكري مكلف بمهمة تحتاج الى قوة ومميز بلباس موحد ، يجابه في المعركة جهازاً عسكرياً آخر مستعملاً نفس السلاح وحاملاً شارات اخرى . وعند ذلك

لا يكون الخصم عدواً الا وهو واقف متقلد سلاحه ، وحين يسقط ويُنتزع سلاحه فأنه يسترد الضمانات المعطاة لمخلوق بشري او « لقريب » اذا اردنا ان نأخذ هذه الكلمة من المفردات المسيحية : له الحق بالعناية اذا كان جريحاً ، وبالتعزيز اذا كان ميتاً . واذا كان حياً واسيراً فعليه ان يسلم سلاحه ، ويفصح عن اسمه وصفته العسكرية ، ويذكر الوحدة التي ينتمي اليها ولكن لن يكون هناك موضوع بحث في ان تنتزع منه بالحيلة ، او الجبر ، او العنف معلومات ضارة برفاقه في المعركة ، وببلاده. اما المدنيون فيعتبرون حياديين : فعدا الحق بايواء الجيش ، سواء كان صديقاً او عدواً ، وتلبية بعض الاوامر المتعلقة بالطلب ، والخضوع لقوانين الامن فانهم لا يتعرضون للعقوبات العسكرية — السجن والقتل - الا اذا ابتدأوا باعمال حربية ، كاطلاق النار والمساهمة في نصب كمين ، واتلاف سلاح او مواد.

هذا هو على الاقل المفهوم الكلاسيكي للحرب ، بالشكل الذي فرضته في الغرب قرون من المدنية المسيحية والقانون الذي اقرته الانسانية . فلا صوفية الاحسان المسيحية ، ولا الحكمة العلمانية التي هيأها تقدم العقل نجحا في ان يستأصلا من التاريخ الالتجاء الى عنف السلاح . وقد ظلت الحصة الكبرى في الرجوع الى السلاح من نصيب الشعوب القائلة بالديموقراطية . ولا تزال تثقل على سير الاشياء الانسانية ثقل قدر لم يغلب ولكن ليس من المستحيل التغلب عليه . ومع ذلك فان تياراً تمدينياً ناشئاً عن اتجاه الانجيل والثقافة الدنيوية مؤيداً بالتحريض الخفي الناجم

عن غريزة الشرق المرتبطة بالحالة الحربية قد أنسن ما كان فيه غير انساني . والمفهوم البربري القديم لحرب الابادة قد ألغي عملياً .

وكان إلغاؤه غير متساو : فهو في الحروب الناشبة بين الامم المتمدنة اكثر منه في الحروب القائمة ضد الشعوب المشهور عنها انها متوحشة . وفي سلوك الحرب الاستعمارية فان الضمير الاوروبي قد بدا اقل تشككاً بوجه عام : انه رضي بابادة شعوب اميركا الجنوبية على ايدي الفاتحين الاسبان والبرتغاليين ، وقطع دابر الهنود الحمر بواسطة المستعمرين الانكلوساكسون في اميركا الشمالية ، وبالاضطهاد العنيف للصفر في اندونيسيا بواسطة الاستعمار الهولندي الفظيع ، وبحرب الافيون الضارية غير العادلة والاتجار بالرقيق الاسود . وكم هناك من اعمال فظيعة اخرى كانوا يبررونها ، مرائين ، بدعوى نشر المدنية ، بينما لم يكن هناك من غاية سوى اكتساح الاراضي وفتح الاسواق . ورغم كل شيء بقي ذلك التقدم الاكيد الذي وسم قذف مدينـة بالقنابل في القرن التاسع عشر بسمة الجريمة واعتبر التوقيف وأخذ الرهائن عملاً مناقضاً لحق الناس ، ولا يكون مشروعاً الا في حالة القوة القاهرة ، ونهب اموال العدو وفرض الضرائب كعمل يلوث شرف الجيش . وفي الحرب العالمية الاولى ايضاً نعت هدم (لوفان) وكاتدرائية ريمس بالبربرية ، وقد استشاط العالم كله غيظاً بسبب قنابل برتا الملقاة على باريس . وعند ذاك ولدت فكرة اخرى عن الحرب ، عقلانية ، كثيفة ، كلية ، وكانت علامة ردة تبعث الذعر ؛ انها التردي في الضراوة الاصلية ، ولكنها

ضراوة فنية ، واضحة ، عارية من الرحمة ، انزلق فيها العـالم بشكل طبيعي ، لا لأن الانسان اصبح اكثر شراً ، بل لأن ضميره قاوم مقاومة ضعيفة دفعات الأعمال الاقتصادية والسياسية والفنية التي اعطت الحرب شكلاً جديداً ومعنى جديداً : انه كفاح امة ضد امة اكثر مما هو كفاح جيش ضد جيش ، ومعركة نفوذ وسلطة اقل مما هي معركة جسد لجسد في سبيل الوجود نفسه .

وما دامت قوة كل من الخصمين تتعلق منذ الآن بقوته الصناعية فكيف لا يكون هناك سعي لاغراق السفن التجارية التي تحمل اعاشة ومواد اولية ، ولتخريب المعامل وطرق المواصلات ؟ وكيف يعتبر كمدنيين حياديين اولئك الرجال والنساء الذين يعملون وراء الآلة او في الارض والذين يزيد عملهم من الثقل الملقى في ميزان النصر ؟ وفي حالة سياسية يؤثر فيها الرأي مباشرة على احكام السلطة لماذا لا تجري محاولة للتأثير على معنوية العدو ، ليس بطرق الدعاوة الاكثر او الاقل نزاهة ، بل بادخال الرعب في قلوب عامة الشعب بواسطة هدم المدن ، والمجازر والحرائق الملقاة من السماء على الارض ؟ وفي نهاية استراتيجية الرعب هذه ، والتي استعملها الفرنكويون ضد البـاسك ، والالمان ضد البولونيين والانكليز ، والانكلواميركيون ضد الالمان ، وجد برق هيروشيما الفائق الطبيعة والمبشر برؤيا (يوحنا اللاهوتي) اكثر جهنمية واكثر حسماً . وبالفعل ، الا نرى حسابات السياسة العالمية المتجهة اليوم بسرعة الى امتلاك القوة الذرية الفائقة ، والتي لا تهدف نتيجتها الخفية والظاهرة الى هدم

الجيش المعادي بل الى المحق الفوري لمدن العدو ؟

إنه القتل الكلي الذي سيبلغ الحيوانات والنباتات بعد الجماهير البشرية ، ويفسد الجو ، ويجعل الارض نفسها عاملة على نشر الاشاعات الملعونة . وعند هذه النهاية لا يبقي للحرب ما يبررها في قساوتها : ازمة في حياة المجتمعات للاحتفاظ باشكال ضرورية او لخلق اشكال اخرى فيها ،انها تصبح سكرة الموت،ومبارزة مجنونة تقذف الغالب والمغلوب في العدم نفسه .

وسيكون من الشائق لمؤرخي المستقبل وفلاسفته – اذا ظل للانسانية مستقبل يوجد فيه فلاسفة ومؤرخون – ان يسعوا ، في هذا التطور الفاجع لقانون الحرب ، لمعرفة ما أوجبته حتمية الاحداث وما ينسب لتعطيل التفكير ، وبالتالي لمسؤوليات البشر . وعلى كل حال فهناك امر راهن يبقى ويجب الشعور به كأنه تمزيق عميق للضمير العاقل : ان ما نراه ، نحن رجال القرن العشرين ، هو حدوث رجعة راعبة للانسانية نحو نظام القيم البربرية ، نحو لامبالاة بآلام الغير ، نحو عدم الاحساس بالرعب وتوبيخ الضمير للدم المراق بدون تمييز ولا شفقة . اما ما يبقى لنا من التقدم فهو التكاثر المذهل للبربرية بواسطة القوة وخلق نموذج جديد من القتلة : الجلاد – المهندس ، المدمر ذو اليدين النظيفتين دائماً وذو الضمير المرتاح ، ذلك الذي يقتل من بعيد ومن فوق دون ان يرى ، ودون ان يريد تخيل ما فعل ، واذا كان الشيطان هو القوة العظيمة المروح

المتمردة ضد الكائن والتي تملأ الحياة بالحزن ، فيمكن القول ان ما هو شيطاني قد ولد من الانسان الذي يعتقد انه سائر على الطريق التي توصله الى ما يجعله إلهاً .

في هذه النظرة الواسعة لتعرية الحرب من انسانيتها والتي اصبحت علمية وكلية ، يجب إضعاف تقاليد الفروسية وفضائل الانسانية الخاصة بالجندي ، في قلب الجيوش الحديثة : وبالاجمال ، محو ما يجعل المعركة شبيهة بمبارزة شريفة ذات قواعد ، وقبول طراز المجازر . وهناك عامل آخر لعب دوره ، هو الذي هبط بسجايا الجيش الى مستوى سجايا البوليس وحط من صفة العمل الحربي : انه في حالة احتلال يرفضه الشعب معتبراً نفسه مضطهداً ، هو المقاومة العملية الشعبية يقوم بها هذا الشعب ، وهو نموذج جديد من القتال . انه قتال جيش ضد شعب وليس قتال جيش ضد جيش . والحرب الاجماعية بين الامم خلقت قتالاً من هذا النوع : وكثيراً ما جرى الحديث منذ سنة ١٩٤٠ عن جيوش سرية وشبكات ، وفرق مقاومة للدلالة على تنظيمات ذاتية وخفية تشكلت على اثر الجيوش المغلوبة الممزقة ، فكانت تزعج العدو ، وتجمد قواه ، وتضع انتصاره موضع البحث . ولكنها كانت على الخصوص محاولات لتحرير الشعوب المستعمرة التي كانت تضطر العسكريين الى الكفاح ضد خصم هارب غير منظور ، يضربه الضربة ويعود اليها فيما بعد متنكراً بزي فلاح وراع . انها حرب مفسدة فظيعة ، لا

يتعلق بتهديد العدو فيها بجهاز حربي ، ثابت في احد الامكنة او على جبهة ما ، بل بحرب عمومية ، وبعصيان في جميع الجهات لا يمكن القضاء عليه ، يشترك فيها النساء والاولاد . والرجال المسلحون الذين تقام الحرب ضدهم لا يكونون مبعث خوف إلا لأن عامة الناس غير المسلحة تخفيهم وتكتم امرهم وتعطف على كمينهم ومناوراتهم . وهكذا يجد الجندي نفسه مدفوعاً بقوة الاشياء الى ان يحول قوته وسلاحه ضد جمهور من الناس وليس ضد جنود آخرين : انه كالشرطي في زمن الاضطرابات المدنية ، اذ يكون من مهمته « حفظ النظام » ، وهو محمول على استعمال الاساليب نفسها ، ادخال الخوف في النفوس ، واجبار الناس على الكلام ، واطلاق النار على الجماهير عند الحاجة . عليه ان يحصل على المعلومات بأي ثمن ، ويقتص الأثر ، ويكتشف الشركاء بالذنب ، ويشعر انه اكثر أمناً اذا اخذ الرهائن ، وحين يتعرض رفاقه للضرب يشعر انهم قد قتلوا ، فالضارب اذن هو « قاتل » والذين يفرض فيهم انهم عاونوه هم مذنبون لا يجب ان يحميهم قانون ، ومن العدل مقابلتهم بالشر الجماعي : التفتيش الدقيق ، والحرائق ، والقتل بالجملة . وعندئذ تأخذ الحرب وجهاً مخيفاً وتلعب فيها من كلا الجانبين احط اهواء القلب البشري ، من البغض والانتقام والخوف ويجد الشعب الاقل تطوراً ان الضراوة هي اقرب الى

طبيعته ، ويعود المتمدن بسرعة الى التردي في قساوة الغرائز مضيفاً اليها مبررات الذكاء وقوى التقنية .

انني ابذل جهدي لأكون عادلاً ، والاعمال التي سأكشف عنها ، والتي هي مجرمة في ذاتها ، سأصفها وفقاً لتطور تاريخي يصبح شرحها فيه ممكناً من الناحية البسيكلوجية ، وحيث المسؤوليات الشخصية مخففة فيها . ان اعتياد ذهنية الحرب الاجماعية من ناحية ، والشروط الخاصة للحرب ضد شعب في حالة العصيان من ناحية اخرى ، تميل بالجندي الى قساوة لا تفرق بين الاشخاص ، وتشوش بنظره الحد الذي هو اساسي ، بين العنف المباح والقساوة المجرمة . وهكذا يتم الوصول الى تلك الوحشية في الطباع : تطبيق التعذيب بواسطة العسكريين . اما استعماله بواسطة افراد البوليس ضد منتهكي الحق المشترك فيخالف ذلك : وماذا يمكن القول اذا كان الجنود هم الذين يعذبون المدنيين من جميع الاعمار والنساء والاولاد وليس الاسرى فقط ؟ ان من المستطاع التذرع بالاسباب المخففة ، اما ان نعذر فلا ... وهنا الشرف نفسه للامة التي تجد نفسها متجندة في ما نشأ منها مباشرة ويمثلها خير تمثيل : في جيشها المستخرج من لحمها والحامل علمها .

ويجب علي ، هنا ايضاً ، ان اذكر احدث الذكريات . ويعود ذلك الى اول الحرب في الهند الصينية . فقد سرت ضجة التقطتها الصحافة ، تقول ان الجيوش الفرنسية التي

تحارب ضد (الفياتمنه) كانت تعذب المدنيين لتحصل على معلومات . وكنا بعض افراد من صحفيين وكتـــاب واساتذة نشعر بالقلق بسبب عمـل يبدو لنا ذا خطورة متناهية ، وصرنا نضع ملاحظات لنطلب تحقيقاً وعقاباً اذا كان هنالك مكان له . وفي غضون ذلك اتيح لي في بيت احد الاصدقاء ان التقي كاهناً كاثوليكياً عائداً من الهنـد الصينية ، مصاباً بجرح خطر ، انه نموذج جميل للانسان ، وللكاهن الشاب العامل ، وللفرنسي الشجاع . وقد القيت عليه السؤال بقلق وسألته عمـا هناك من صحيح في تلك القصص عن التعذيب ، فأجابني بكثير من الهدوء : « نعم ، هذا صحيح ، وهذا لا يمكن تجنبه لانه يتعلق بنوع الحرب التي يخوضها فتياننا هناك ، انهم لا يستطيعون ان يفعلوا غير ذلك . » ولما اعترضت ، قال لي : « لنفكر هنيهة ، افترض انك موجود بين الادغال كقائد فرقة ، وجنودك من خلفك ، والفياتناميون حولك ولكنهم غير منظورين . ومن واجبك ان تعلم ما يهيئون في المكان الذي ينتظرونكم فيه ، انها قضية حياة او موت للاربعين فرنسيـاً الذين في عهدتك وانت مسؤول عنهم . فاذا صادفك الحظ بأن تعلم ما انت بحاجة لمعرفته بتوقيفك امرأة مـــن القرية وعملك على ثقب يدها بمسمار الى ان تتكلم ، فهل تتردد في ذلك ؟ اما انا فأقول لا . وسيكون لك ملء الحق في ان لا تتردد بعمل ذلك . » ان هذا الجواب قـد

شوش تفكيري ، فالصفة الاخلاقية للشاهد ليست موضع جدل ، وقد اضطرتني الى ان اقيم وزناً لرأيه . وارتجفت من ذلك في بادىء الامر ، واعتقدت ان رفضي الحانق لم يكن سوى رفض مفكر يجلس متمترساً وراء كتبه . ولكي تحكم على عمل ، يجب ان تضع نفسك مكان الذي قام به ، لا ان تحكم وفقاً لوجهة نظر سيريوس ؟ ولـما كنت بعيداً عن العمل فقد كان من واجبي ان اسكت .. وبعد ان فكرت ملياً عرفت ان حركـة التمرد الاولى هي العادلة المخلصة وان سوء المعاملة هو الذي كان سيئاً . ان الوضعية لا تجعل لكل شيء عذراً ، وما يكوّن قوة المبادىء هو انها مبادىء : يعني التعبير عن مطلـــق لا يكسفه اي اعتبار للظروف او المصلحة ، والا ، فليس هناك حق او اخلاق . والامر الذي استنتجته من مقاصد هذا الكاهن – الجندي ، والذي يتكلم كجندي اكثر منه كاهناً ، هو ان المرء يجب ان يكون متحفظاً في الحكم الذي يصدره على الرجل العامل . ان الله وحده يعرف مقدار ذنب ذلك الضابط الفرنسي الذي ثقب يد المرأة الفياتنامية ، كقائد المائة الذي سمر يد المسيح عندما تلقى الامر . ولكن يجب ان يظل المرء صلباً وقاسياً في تقدير قيمة العمل الاخلاقية : فالشر ليس خيراً ابداً . واذا قال لي العسكريون الذين قاموا بالتعذيب لانهـم يعتبرونه كواجب في وضعية معينة : « لو كنت مكاننا

لفعلت مثلنا » فسأجيبهم : « هذا ممكن ، ولكنني لو فعلت مثلكم لعلمت انني قمت بعمل سيء . انا اعلم اننا مذنبون بالاجماع ، وان فرنسا في وضعية الاتهام والذنب اذا اتاح الفرنسيون لهذه العادات الشائنة ، المخالفة لمبادىء المدنية التي يزعمون انهم يمثلونها ويحفظونها ، ان تتأصل عندهم دون ان يعترضوا او يتحركوا . والامن لا يشترى باهمال العدالة ، ولا القوة بالتخلي عن الشرف . واليقين القلبي المحرق هو الذي اضطرني الى كتابة ما كتبت . »

وحين يقول لي اول مفكر : « اذهب اذن وانظر اذا كان هناك في القاهرة او الرباط مفكر مسلم واحد يحتج على جرائم العصاة !.» فسأجيبه مسبقاً : « اذا كنا جديرين حقيقة بانعكاس اخلاقي لا يملكه الخصم ، فهذا افضل مبرر لقضيتنا ولانتصارنا ايضاً . »

اضمامة حوادث

هذه اضمامة ، لا من الزهور والادب والانسانية ، بل من الشوك الدامي المشين . واذا كان لا يزال هناك فرنسيون يحسون بالشرف ككورناي وبيغي ، وبطهارة الجندي كفوفينارغ ، وبعظمة فرنسا كميشليه ، وبالشفقة كهيجو ، فانهم لن يقرأوا ، دون ان يحمروا خجلاً ، هذه الشهادات التي نقلتها بغضب مؤلم . وستكون مفهومة اسباب الحيطة التي دعتني الى عدم ذكر مصادرها ، اما صحتها فليس عندي اي شك فيها .

شهادة

« انا الموقع بذيله ا . ب . ا . ، المستشار البلدي في س ... اقسم بشرفي على صحة الحوادث التي جرت منذ توقيفي بتاريخ ... الساعة الرابعة عشرة بواسطة بوليس

الدولة . وقد ساروا بي الى دائرة البوليس ومنها الى المختبر (لفظ افراد البوليس) ... واستجوبني ثلاثة مفوضين معاً وعشرة من افراد الشرطة ، وقد اساء المفوض معاملتي وكذلك الشرطيان X ... و X ... وغيرهما من الذين اجهل اسماءهم ، باللكم والرفس . ثم امرت بخلع ملابسي ، وقيدت يداي ، واجلست القرفصاء ، وعصبت عيناي ، ووضعت عصا بين فخذي ، ثم اجلست على منفخ ، وعذبت بواسطة الانبوب وبطريقة الدوس الى ان أغمي علي تماماً . وجرى ذلك ثلاث مرات ، حتى الانهاك التام . ثم نقلت الى زنزانة دائرة الشرطة ، مكثت فيها خمسة ايام قبل ان امثل امام قاضي الصلح . »

تصريح السيد (س. ز. احد اصحاب الاملاك في ك.)

« بتاريخ ... ١٩٥ كنت في بيتي وقت القيلولة . فجاء الدركي ث ... يدعوني قائلاً : « ان الرئيس يطلبك ... » وذهبت وحدي .

وعند وصولي رأيت المدعو س ... مغمي عليه تماماً . وقد قال لي الرئيس : « لقد قذفت البارحة مساء سهماً نارياً اخضر من بيتك . وسنعلم الحقيقة ، اجلس على الارض » . وجاء حالا دركي من اهالي البلاد وقيد يدي مع رجلي ، ووضع شريطاً وراء اذني وآخر في الاصبع . ثم ادار الرئيس الآلة المغناطيسية (المسماة

Magneto) [1] وهو يستجوبني ، وكنت قد صعقت بسرعة ... وفي الغد جاء من ساقني الى السجن بعد الظهر تماماً ... وعاد ل ... الى تسليط التيار الكهربائي علي ، فقلت له ان من الافضل ان يقتلني برصاصة . « سل الدركي ث ... انه يعرفني ، ويعرف ما استطعت ان افعل . » وقال ث ... « هيا لنسأل ب ... » وخرجوا وحل محلهم آخرون ليقوموا بعملية تسليط الكهرباء ... وقد ظللت في السجن ثلاثة ايام لم يعطني الدرك اثناءها شيئاً آكله ... وجاء عريف رئيس في اليوم الثالث واخذني الى مطمورة للشعير مستعملة كسجن . ثم جاء في اليوم نفسه واخذني من هناك الى مكتب النقيب ... وقد قال لي هذا : « تستطيع الذهاب الى بيتك ، ولكن ابق هادئاً . »

(ويضاف الى ذلك تصريح الدكتور ج .. الذي تولى تطبيب س . ز . وقد قال ان هذا قد اصيب بانهيار عصبي على اثر التعذيب في السجن . ان س . ز . لا يعرف شيئاً ولم يفعل شيئاً) .

---

١ انها وسيلة التعذيب المسماة « التلفون » وهي سهلة الاستعمال ناجعة ، ويبدو انها اصبحت شائعة الاستعمال في ادارة الامن في الجيش .

تصريح كاهن

« ... بينما كنت اعود المرضى في المستشفى المدني في ا ... التقيت المدعو ي ... من نزل و .. س .. في قضاء ا .. ي .. وقد اوقفه الدرك لعدم وشايته بالثائرين . وقد علقوه بيديه ورجليه في سقف اسطبل ، واصابه من جراء ذلك انفكاك في كتفه اليمنى . »

من رسالة جندي

« في الثالث من كانون الاول ... بعد الظهر ، دعا الدرك بعض العسكريين الموجودين في ساحة الحصن ليأتوا ويتمتعوا باحد المشاهد . وكانوا على أهبة تعذيب عربيين اوقفا في السهرة . وكان البند الاول من التعذيب يتضمن تعليق هذين الرجلين ، العاريين تماماً ، من ارجلهما ، وايديهما مكتوفة الى الوراء ، وان يغمسوا رأسيهما مدة طويلة في سطل ماء ليحملوهما على الكلام . والبند الثاني من التعذيب هو ان يعلقوهما ، وايديهما مربوطة مع ارجلهما الى الوراء ، والرأس الى فوق هذه المرة . وقد وضعت تحتهما مسامير مروسة . ثم اخذوا يؤرجحونهما بواسطة اللكمات بشكل يجعل اعضاءهما الجنسية تحتك بالمسامير المروسة . اما الملاحظة الوحيدة التي ابداها احد هذين الرجلين فهي ان التفت الى العسكريين وقال : « انا

خجل لوجودي عارياً امامكم . » ولما لم يستطع الدرك ان يستخرجوا شيئاً من الرجلين قالوا : « سنعود الى ذلك في المساء . »

حكاية دركي

« لقد حدث ذلك في منازل قبيلة ، وكان الدركي ج .. يستجوب رجلا بواسطة عملية « التلفون » وكانت ام هذا الرجل ، وهي عجوز تبلغ السبعين من العمر تقريباً ، تنتحب بصوت مرتفع . فضربها الرئيس لكي يسكتها ، والقاها ارضاً لا روح فيها . واراد الدركيان اللذان يساعدانه ان ينعشاها ولكنه قال لهما : « اتركا هذه العجوز المجنونة ، واهتما بعملية التلفون ...

في الامثلة التي ادرجناها كان الامر يتعلق باعمال منسوبة للدرك والشرطة [1] . واليكم هذه الشهادات عن امتداد هذه الاعمال الى الجيش .

من رسالة ضابط (في ٦ حزيران ١٩٥٦)

« جان ... انا مشمئز اكثر من اي وقت مضى . لقد كان الالمان في اساليبهم غلماناً صغاراً بجانبنا . انني شاهدت عمل المكتب الثاني للمظليين : التعذيب طول

١ من الحق ان نشير الى ان فرنسوا ميتيران قد اوقف تطبيق التعذيب البوليسي في الجزائر : ففي بدء سنة ١٩٥٥ نقل من الجزائر الى فرنسا بعض مفتشي البوليس المعروفين بقساوتهم .

النهار للحمل على الكلام . والانبوب المضغوط في الفم الى ان يخرج الماء من كل مكان . والايـــدي معلقة وراء الظهر ، وبعد ذلك يجري التعليق من المعصم لكي تتفكك الاعضاء . ثم يوسع المتهم ضرباً . ثم آلة مغناطيسية احد وجهيها في جهاز التناسل والآخر على الرأس ، وتتـوالى ضربات التيار الكهربائي . وحين ينتهون من ذلك يغرسون سكيناً بين الكتفين .. اننا كلنا في x ... غاضبون . واذا كلف احد منا القيام بالاستجواب فلن يحدث شيء من ذلك ، وهذا ما آمله على الاقل ... »

من يوميات الطريق

عيد الميلاد ١٩٥٥ — « ما من شيء يدلنا على انـه الميلاد ، اننا نشتغل فيه كأنه يوم عادي . لقد ذهبت شرذمة تحارب تحت المطر وعادت باثنين من المشبوهين : هرم يبكي ويقص علينا حياته : لقد كان جندياً طوال سنوات سبع ، ثم اسيراً ثلاث سنوات في المانيا ، وله خمسة اطفال عليه ان يقوم بأودهم . الخ .. وخشاب يرتجف ويبدو انه لا يعرف الفرنسية . وقد اطلق سراح الهرم ، اما الشاب فقد أسند امره الى احد حراس x ... فبدأ هذا بتهديده ، ثم استعملت وسيلة الرباط : وضعت قطع مستديرة من الخشب تحت ابطيه وركبتيه ، وربـط

مقرفصا ، الخ .. وقد واجهه حشد مضحك وسخرية بلهاء من الجمهور . وكانت الاراء منقسمة . وقلائل هم الذين يجرؤون على قول ما يفكرون به ... وفي المساء ربط الشاب الى وتد بقرب العربة : انه ممدد ، وقد وضع احدهم قدراً صغيرة تحت رأســه كوسادة ، وصرخ آخرون : « هذا خير ما يصنع مع هذا الـ ... » ومع ذلك أعطي طعاماً ... انه اول ضحية للسرية . سيظل ماثلاً أمام عيني هذا الوجه المتألم ، والجسد الملتوي ؛ المربوط الى اخشاب مستديرة ، وهو يتعرض لسخريـة الجنود في مساء عيد الميلاد . »

قد يحدث لنا احياناً ، نحن المسيحيين ، ان نفكر بيأس في ما هو اخفاق عملية فـداء البشر : الشر قوي دائماً على الارض ، والحقد يختمر بشكل دائم في قلوب الناس ، والمعمدون أنفسهم غير مخلصين لقانون الانجيل ، وصمّ عن سماع أصوات السماء . ومن أدلة هذا الاخفاق ان أبناء تلك الأمة المسيحية يعذبون ، مساء عيد الميلاد ، مسلماً بائساً ليقول لهم أين خبأ بندقيته ...

من يوميات الطريق نفسها

« في السادس والعشرين .. مساء جاءت دورية ليلية بأربعة مشبوهين ، فتعرض اثنـان منهم للآلة المغناطيسية

وقد سمعنا صراخهما في وقت متأخر من الليل . انها المرة الاولى التي يجري التعذيب فيها في الغرفة للحصول على اعتراف . وقد حدثني ل ... أنه حضر في ه ... منذ بضعة ايام مشهد تعذيب من هذا النوع : شريط على عضو التناسل والآخر على شحمة الاذن . وقد جرى ذلك بحضور زوجة الرجل . »

٨ آذار ١٩٥٦

« ... بعد الظهر سيقوم الجنود والضابط بتعذيب السجناء ، ضربات بالدبوس على النقرة ، لكمات ، ماء يبتلع بالقوة ، تعليق بالاذرع والأرجل . والرفاق يتتابعون وينظرون . وقد سمع صراخ الضحايا ، يبدو انهم انتهوا بان لفظوا اشياء ليست سيئة . »

وما فائدة المتابعة ؟ ومع ذلك سأدرج نصاً يلقي نوراً على حادث خطير : هو ان اعمالا من هذا النوع لم تكن دائماً من عمل افراد الجيش او ذوي الرتب الصغيرة الذين انصرفوا الى اثارة حرب وحشية . ان رجالا اعظم تفكيراً واكثر اهمية قد لجأوا اليها أيضاً .

تصريح احد وجهاء قسنطينة

« اوقفني الجيش وسير بي حالا الى ك ... وفي الساعة العاشرة من يوم السبت بدأ الاستجواب بحضور عقيد ،

ومقدم ، ونقيبين . وهذا الاستجواب الذي دام ٥٧ ساعة كان يقوم به مقدم . وقد تعرضت اثناء الاستجواب لعمليات التعذيب الآتية :

١ً – كهرباء في الاصابع وعلى الأذن .

٢ً – المغطس .

٣ً – ضرب بالسياط على اخمص القدمين وعلى الاجزاء الجنسية .

٤ً – كهرباء في الاجزاء الجنسية (ويجب ان اشير الى ان الكهرباء كانت تنتج من آلة يديرها نقيب) .

وبعد ان حجزت في غرفة ، اطلق سراحي في الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين » .

ان هذا الوجيه البريء لأن المحققين اطلقوا سراحه – قد رأى ان بعض الضباط الفرنسيين قد اصبحوا عديمي التهذيب .

يجب ان نضيف الى التعذيب البحت ، او محاولة الحصول على معلومات بواسطة الألم ، اشكالاً اخرى من العنف نتجت من نفس الاحتقار للانسان . ومن اللااخلاقية السياسية نفسها ، مع بعض التمييز : ان الغاية تبرر الواسطة ، والنزعة الارهابية تخلق بواسطة الارهاب . واليكم ايضاً ، كنماذج ، بعض الأمور التي شوهدت ونقلت بصدق .

من يوميات كاهن – ضابط
تموز ١٩٥٦

« سأتحدث قليلاً عن المعاملة القاسية ، والتعذيب ، وعن القرى المقذوفة بالقنابل : نساء ، واطفال ، وخيول ، وقصص عن حوادث قتل قام بها جنود المظلات ، واعمال مخالفة لاداب الحرب . على طول الخطوط الحديدية ، يستطاع رؤية مناظر القرى ، او جماهير صغيرة من اهالي البلاد أصلتها رشاشاتنا ناراً : انه الانتقام . وكان البعض ، وهم قلة ، ضد هذه الوسيلة الممنوعة نظرياً – ولكن المفرزة كانت تجد سروراً بالاسترسال في ذلك . وقد شاهدت ضابطاً برتبة ملازم يرفع بفخر صورة بدا فيها جالساً بعظمة على تراكتور مزرعة وهو يهدم الجدران ويسحق السكان . وكان السكان الذين يعرفون الاساليب المستعملة قد تركوا المزرعة قبل ذلك . ولكن جيش الاحتلال يهدم في الغالب بشكل نظامي دون ان يهتم بالسكان المحترقين مع بيوتهم الحقيرة . وقد قال لي احد الرفاق : « ان هذا حسن ... ليس هناك شفقة . انهم لن يفهموا الا بذلك . هؤلاء الاوباش ! » .

من رسالة بعد حادثة ولد – بشيا (نيسان ١٩٥٦)

(وفقاً للائحة تتضمن عشرة اسماء من المسلمين) :

« ان جميع هؤلاء الرجال وغيرهم ، والجميع ٣٢ ، قد قتلوا بالجملة في ٢٨ آذار ١٩٥٦ ، بين الظهر والساعة الثامنة عشرة ، في قرية ولد – بشيا ، وذلك بعد التعذيب والتشويه . وهؤلاء الرجال لم يحملوا السلاح بأيديهم ، ولكنهم يعيشون في القرية نفسها ، وكانوا يشتغلون بسلام » .

من رسالة اخرى ، بعد حادثة وادي الزناتي
(اذار ١٩٥٦)

« في نهاية بعد ظهر السبت ، اصيب احد الجنود بجرح خطير من الارهابيين ، ومقابل ذلك جيء بجميع المسلمين القاطنين في المحلة وعلى بعد ميل من مكان الحادث الى مركز الدرك حيث قضوا الليل بأكمله ، وقد اختير منهم ستة وقتلوا .

ووجه انذار الى السكان انه في حالة اغتيال يحدث بعد ذلك ، فان ثلاثين مسلماً سيفقدون حياتهم . وفي الغد اطلق البوليس سراح ستة من مسلمي المنطقة كانوا موضع شبهة ولم تثبت عليهم اية مسؤولية ، ولكن العسكريين اتهموهم . واكتشفت جثثهم نهار الاثنين الواقع في ٢٦ من ... في المكان المسمى م . ا . ا . ونهار الثلاثاء اعلنت الصحيفة المحلية ان ستة من العصاة قد قتلوا على اثر اشتباك في منجم أ .. أ .. »

من رسالة اخرى (٣٠ نيسان ١٩٥٦)

« منذ اثني عشر يوماً جرح احد رجال الحرس في أراضينا ، وفي الصباح الباكر اخرج الجيش من البيوت او من الاكواخ عشرة رجال كرهائن ، وقتلهم انهم عشرة عمال في المنجم ، معروفون جيداً . وقد خلت القرية تماماً من المسلمين الذين هربوا الى الحقول . وتأثر الاوروبيون كثيراً وكانت الدموع تطفر من اعينهم وهم يتحدثون عن ذلك : فقد كان المقتولون من الذين يشتغلون معهم في جميع الايام . »

من يوميات الطريق (اذار ١٩٥٦)

« اول البارحة ، استعداد للقتال في المعسكر . فقد سقط كميونان من الجنود في كمين ، وقتل صف ضابط وجندي . ووقفت فرقتنا على استعداد ، ونحو الساعة الرابعة سرنا على الاقدام عبر السهول ، وبدلا من ان نذهب للنجدة سرنا نحو قريتين ، وجرى التفتيش ، ومصادرة الرجال ، وانهالت اللكمات . الخ ... والقريتان تبعدان عن المعسكر خمسمائة متر وثمانية او تسعة كيلو مترات عن مكان الكمين . ولكن الرفاق انصرفوا بسرور الى هذه العمليات ضد السكان : فحملت الفرقة الاولى كل شيء ، اما فرقتي فتصرفت بشكل اكثر ضبطاً (...)

وبعد ذلك تسلقنا احد المرتفعات وشاهدنا من الالواح الاولى هجوم الصيد الذي قذف قرية بالرشاشات ... »

ان جميع هذه الحوادث التي تشعرنا بمناخ حرب دون قانون او رحمة تتعلق بالموضوع نفسه : الانتقام [1] . وكل عمل من العنف يقوم به العصاة في مكان معين يجب ان يقابل بتخريب وتقتيل في جوار ذلك المكان . ولم يعد الامر يتعلق بالقبض على المذنب ، بل اصبح من المقبول ان كل جنسه مسؤول جماعياً وبدون تمييز ، ولا بد ان يدفع الثمن عنه اي واحد من اخوانه . وهذا بالضبط هو المبدأ الذي برر به الهتلريون مجزرة اورادور : فاذا

---

١ ان الوثائق المنشورة عن وسيلة الانتقام كثيرة . وسأذكر فقط المقال الجريء الذي نشره جورج بانشنيه في (الموند) بتاريخ ٢٢ نيسان ١٩٥٦ ، بصدد عملية الاعتقال الضخمة التي تبعت مقتل المفوض سمرسللي في قسنطينة : « لقد رأيت افراد فرقة كوريا الذين كانوا يحافظون على الطريق الوطنية . انهم ليسوا قديسين صغاراً ، ولكنهم كانوا متقززين — اكثر مما هم غيارى — لرؤية ما حمله افراد البوليس عند خروجهم من المدينة السفلى . » ومن الممكن ايضاً ذكر رسالة قس بروتستانتي في صحيفة (الاصلاح) والتي كتبت بعد حوادث ٢٠ نيسان ١٩٠٥ في فيليبفيل : « كان الجواب على الفتنة الوحشية عملية قمع خالية من الرحمة . مفهومة احياناً ولكنها عمياء على غير قياس . وقد اعلنت الحكومة عن مقتل ١٢٧٣ شخصاً ، اي عشر مرات اكثر من عدد الاوروبيين . »

كنا مؤمنين بمبادئهم واساليبهم فيجب ان نعتذر اليهم لأننا عاملناهم كمجرمين ، واذا كنا لا نزال نحسبهم مجرمين فعلينا ان نقلع عن العمل مثلهم . ورب معترض ينهض ويقول : « ولكن ليس الامر واحداً ! فحين كان الفرنسيون والالمان في حالة حرب ، فان شعبين من الجنس الابيض ، الاوروبي ، المتمدن هما اللذان يتحاربان ولن نذهب الى درجة مقارنة المقاومين الفرنسيين بعرب bicot [1] اميين شرسين » . — اذا وجد من يقول هذا الكلام فانني اجيبه : « نعم ، وجوهر السؤال هو هنا : اذا كان هناك رجال يلقون بأنفسهم ؛ وهم في حالة الهياج في ذلك الاشتباك القاسي ، والجرائم التي تدعو للانتقام ، والانتقام الذي يشعل الحقد ويضاعف الجرائم ، فقد كان ذلك لأن النزعة العنصرية ، في اندحار هتلر نفسه ، قد تغلبت وربحت في النهاية . ولم توبح فقط عند الشعوب الأقل ثقافة والتي دفعها تعصبها في كره الاجانب الى قتال دون رحمة او قياس ، بل عند الشعوب المتأنسة ، المسيحية ، التي استعادت امام عصيان اهالي البلاد حركة

---

[1] ان كلمة bicot تعني جدي ماعز ، وهو الاسم الذي يطلقه المتمدنون الفرنسيون على العرب (راجع معجم لاروس) . وهناك كلمات سافلة صادرة من صميم الخلق الفرنسي قد اهملنا ذكرها .

— المترجم —

الابادة القديمة التي استعملها الفاتحون البرابرة .

وسأحفظ ايضاً عملاً ظهر جلياً عند ابناء امة عرفت ان تكتسب على مر العصور بدينها الفروسي ، ثقة العالم العربي . انه مزيج من القساوة والخيانة : هو ما يدعى « سخرة الغابات » . وقد جاء التعبير من قدماء حرب الهند الصينية : يقاد السجين الى الحقول ويقال له : « انت حر ، اذهب » فيركض ولكنه يقتل عند اول خطوة ، وبعد ذلك يصرحون في تقرير الوحدة : « لقد قتل في محاولة هرب . »

من يوميات الطريق

« قال لي ب .. ذات صباح : « لقد قـام الجنود بعملية (سخرة الغابات) مع احد الرجال هذا الصباح . » ولكن الرجل لم يمت . وبعد ساعتين جاء به الجنود على نعش ، فقال الضابط متعجباً : « ما فائدتكم من الاتيان به ؟ انتم ... » وكان المسكين مضطجعاً ، وساقه مصابة بثلاث رصاصات ، وهناك ثلاث اخري في قفاه وواحدة في بطنه . وطلب الي الضابط الاعتناء بـه مع ب ... ولم يكن معنا سوى ضمادات فردية . وغرفـة التمريض فارغة وليس بالامكان ان (نضربه ابراً) . واعتنينا جهد المستطاع بالمسكين الذي طلب ان يشرب ، وهذا لا يصح

مع وجود الرصاصة في بطنه . وحين طلبت جندياً ليحل مكاني ، طردني الضابط بعنف قائلًا : « دعه وحده » وقد نجحنا بايجاد المورفين وحقنه به . ومات نحو الساعة السابعة مساء ، فذهبت ابحث عن الضابط ، وكان تأبينه المأتمي قوله : « حسناً ، اسحبوا عنه الغطاء لئلا يلوثه » وكنت اعلم ان هذا الظنين لم يكن سوى راع فقير اصم ، وابن ارمل اعمى ... »

ان لهذا النص فائدة كبرى . فهو اولا يظهر ان اكثر الناس قسوة امام بعض اعمال الجندي المشينة – كأن يقتل اسيراً من الوراء – لا بد ان يعاودهم ضميرهم : ان الجنود اخفقوا في قتل المسكين ولم يجدوا الشجاعة للاجهاز عليه ، وأتوا به الى المعسكر متعرضين لشتائم قائدهم . ويرى في هذا النص ايضاً انه بين الجنود من ذوي القرعة الواحدة ، والمستخرجين من احشاء الشعب ، لم تكن تنقص سوى تلك القساوة المنحطة لبعض الوسائل المشينة ، وان يساعدوا باخلاص على اماتة « جدي – عربي » . انهم على حق مرتين : اولا لأنه انسان وهذا يكفي ، ثم لأنه ليس عدواً ولكنه نوع من القاصر اخلاقياً قد تمرد ضد الوصاية الفرنسية التي لا تزال فرنسا مسؤولة عنها . انني اقول ان اولئك الذين احتفظوا في قلب المعمعة الراعبة بهذه الاستقامة الغريزية ، وشرف النفس

الطفولي ، قد انقذوا شرفنا . وانقذ شرفنا ايضاً – وانا مقتنع بذلك – اولئك الذين يهيئون افضل الحظوظ للاحتفاظ بالوجود الفرنسي على ارض افريقيا [1] .



[1] في صحيفة « فرنسا الكاثوليكية » في ١٣ نيسان ١٩٥٦ ، وجه جوزيف هورس اللوم الى الكاثوليك العاطفين على اجراء مفاوضات مع العصاة الجزائريين ، والذين نسوا ، وهم الامناء على انجيل السلام ، انهم يلعبون لعبة الاسلام ، الدين الذي يأمر بالقتل (!!!) .

فهل يمكننا ان نذكره ، بعد القاء نظرة على الارقام الرسمية ، ان الارهاب الجزائرى انتج في سنتين ٢٧٢٠ ضحية مدنية بينهم ٣٦٣ اوروبياً ، و ١٨٠٠ ضحية عسكرية مقابل ١٦٤٥٠ من العصاة المقتولين ؟ ان الامر اذا كان متعلقاً بعملية داخلية تدعى عملية اقرار السلام ، فلا يستطاع القول ان الجيش (المسيحي) كان يخاف من إراقة الدماء .

مسؤوليات

هذا هو احد وجوه الحرب الجزائية . ويجب على الفرنسيين ان يتجرأوا على مواجهتها ، لا ليستخرجوا منها النتيجة القائلة ان هذه الحرب يجب ان توقف بأي ثمن : فعبارة « بأي ثمن » لا تنتمي الى اللغة السياسية ، ولا ليستنتجوا منها ان جميع العسكريين الفرنسيين يحملون بالتساوي وزر هذا الامر الشنيع : لأنني سأقول العكس ، بل لأجل تدبر معطيات المشكلة ، واتساعها ، وخطرها ، وميزتها الفاجعة ، ولحمل جميع الارادات على الميل الى البحث عن حل ايجابي ، نزيه وسريع .

انني اسمع جيداً ما سوف يقال لي ، وكذلك الصراخ المرتفع من جميع الجهات : « ولكنْ الاخرون ؟.. واعمال الارهاب ، والقتل الوحشي ، وبتر الاعضاء . وهتك الاعراض ، وجميع الجرائم التي ارتكبها العصاة ؟

وذلك المزارع . الذي ربط الى وتد ، ورأى الثائرين يحرقون مزرعته ويغتصبون زوجته وبناته ؛ ويبقرون بطون اولاده ، اتريده ان يبكي على ضراوة الانتقام ؟ واولئك الجنود الذين عثروا على جثة رفيقهم مذبوحة ، قطعت منها معالم الذكورة ، في زاوية غاب حين نصب كمين بمعاونة سكان القرية ، أتعتقد انه سيكون من الممكن ان يطبقوا اتفاقية جنيف حيال خصم متوحش قاس ، ثم اليس رد الفعل العنيف عندهم من ضرورات الحرب ؟.. واذا كان ضدنا شعب بكامله ، متماسك في ارادة الأذى والانفعال ، هائج في أعماقه ، فهل نستطيع الدفاع عن حقوقنا دون ان يسيل دمه كشعب مشترك في العقاب اشتراكه في الذنب ؟ »

ان قوة الحجة لم تغب عني . وصحيح اننا لا نرى أمامنا تلامذة غاندي ، او رسلاً يبشرون باللاعنف ، بل ارهابيين ورجالاً عارين من الشفقة لا يملكون الوسائل التي تمكنهم من اشهار حرب شريفة فارتضوا القيام بحرب قذرة ، القتل فيها هو الآلة الشائعة . وانني أعلم ايضاً ان كثيراً من الفرنسيين الذين وصلوا الى افريقيا تعمرهم مقاصد نبيلة ، قد فارقهم الصبر حالما تأثروا بايقاع القتال جسداً بجسد مع شعب متعصب ، واشتعل فيهم غضب عظيم كغضب الجيش ، واعتنقوا الوسائل القاسية ، وقد قيل لي : « ان طالباً صغيراً هو الذي يدير عملية التلفون

في مشاهد التعذيب ... »

نعم ، انا مقتنع بضرورة وزن المسؤوليات ووضع الحوادث في ظروفها ، وان لا نترك الاعمال وحدها تتكلم . ومقتنع ان هناك شيئاً صحيحاً ، عملياً ، رزيناً ، انسانياً فيما قاله لي ضابط شاب قبل ذهابه الى الجزائر : « ان الحرب التي يرسلوننا لنقوم بها هناك هي مقيتة ، والمؤسف هو ان عليك ان تقوم بها حين تجد نفسك هناك ، تقوم بها نفسها وليس بحرب اخرى . » وكذلك فسأتجنب اصدار حكم جماعي لا فروق فيه ضد اساليب الجيش في افريقيا الشمالية . وبشكل ما ، فان العمل المخزي اذا صدر عن شرذمة اثارها عمل من اعمال اللصوصية او قتل احد افرادها ، فصبت انتقامها على اول من تلتقي به ، واشعلت النار ، وسلبت وضربت ، يكون اخف وقعاً مما لو صدر عن قيادة تنظم التعذيب بدم بارد كوسيلة من وسائل جمع المعلومات . وحين اقول ان الفضيحة أخف فلا أعني انه ليس هناك فضيحة : واذا أمكن شرحها بسيكلوجياً وايجاد العذر لها من وجهة نظر منفذها ، هذه الاعمال التي هي في ذاتها مخالفة لقانون الحرب وحقوق الناس ، فلا يستفاد من ذلك وجوب جعلها مشروعة بشكل موضوعي ولا القبول بتكرارها او ان تبرر امام الضمير بشكل تبدو فيه نظامية طبيعية : انه بسبب ضعف هذه الطبيعة تنحط مدنية وتتدنى شبيبة

وتسقط أمة . وهذه « الحرب القذرة » التي فرضت علينا ، نرى من واجبنا ان تظل نظيفة من ناحيتنا .

وسيقال لي — وانا انتظر ذلك ايضاً — : « ماذا تعرف عنها ؟ وما دمت لم تدخل الحمام فكيف تستطيع الكلام عن كيفية وجوب السباحة ؟ ان ضباط الاستعلامات والجنود لم يحاولوا ازعاجكم بتعليمكم كيف تؤلفون كتاباً او تعدون درساً : ان لكل انسان مهنته ؛ فلا تقاضوهم على القيام بواجبهم . » ما في ذلك شك . وهنا نلمس مشكلة عسيرة : كيف نتقن اخلاقية الوضعيات الشاذة ؟ ان اولئك الذين جابهوا العمل هم على العموم مشربون به ، مضطرون الى الاجابة باستمرار على تحديات تستدعي اعمالاً سريعة حاسمة لا تترك لهم مجالا للتفكير . اما الذين تتيح لهم الوظيفة والوقت ان يفكروا فهم على العموم في امان لا يؤهلهم للكلام او انه يجعل كلامهم عديم الجدوى . وبهذا الشكل تنتهي مغامرة التاريخ بان يخبط خبط عشواء ، بواسطة الفعل المنعكس وليس بواسطة التفكير ، ودون الرجوع تقريباً الى نظام القيم الروحية التي يجب ان تلهم سيره وتقاضيه في جميع الاحوال . ومن حسن الحظ انه يوجد احياناً رجال يستطيعون القيام برد فعل اخلاقي ، ورجال تفكير موضوعيون بشكل كاف لاعتبار ضرورة وجود المبادىء في الوضعيات الممكنة الحدوث .

واذا تجرأت وكتبت ان هذه الحرب في الجزائر يمكن

ان تقام بشكل انساني ، فذلك باستنادي الى العسكريين ذوي البصيرة وشرف النفس ليقودوها كبشر وكفرنسيين وليؤثروا الفروسية على البوليس امام عنف العصاة . انها مجازفة ، وانا موافق على ذلك ، ولكنها تستحق الجهد .

وقرأت في يوميات الطريق : « لقد اعطانا الضابط الاوامر الاخيرة : منع السلب . اننا أتينا لاقرار السلام . ممنوع اطلاق النار على النساء والاولاد والرجال الذين لا يحربون . وقد حدثني ف ... بحماسة عما فعله رئيسه النقيب . انه اعاد كل ما سرقه رجاله ، ودفع ايضاً ثمن حمار قتله احد الحراس خطأ . » وقد كتب احد اليسوعيين بصدد تفتيش القرى : « يحدث في الغالب ان يوزع احد العسكريين الاعاشة ، من الحلويات على اطفال القرية ، او أن يوزع الملابس بينما يقوم عسكري آخر بملء جيوبه بما نهبه من مال ومتاع . » ان صور الدعاوة قد عممت صورة « الجندي الذي يعيد السلم » والذي يقوم بتعليم الاطفال العرب ؛ وهنا امامي تقارير مدرسين وطلاب مكلفين بفتح مدارس في البلاد المحتلة يعترفون فيها انهم حصلوا بسرعة على ثقة السكان . ويجب على الخصوص ان نذكر حالة بعض الضباط العاملين ، الامناء على تقليد ليوتي ، الذين يروا أنفسهم في « الجزائر الفرنسية الجديدة » كادارين مكلفين بوضع الترتيبات الجديدة التي تسمح بتعايش الجزائريين من اصل اوروبي مع الجماهير المسلمة — وهم

يعتقدون انه لا يمكن اكتساب ود هذه الجماهير الا في اليوم الذي يفهم فيه تماماً معنى عصيانها ومبرراته . وقد بدت معطيات المسألة لهؤلاء الضباط — كما اوضح السيد اوجين مانوني في تحقيق نشر في صحيفة (الموند) — انها تكمن في البؤس ، وفي عاطفة الحرمان التي يشعر بها الفلاحون الذين ظلت رغبات العدالة والفضل (المساواة) مجهولة لديهم زمناً طويلاً . فارواء الارض العطشى ، وتهيئة العمل المكافأ لاولئك الذين يجلسون القرفصاء امام بيوتهم « ليس بدافع الكسل » بل لانهم تحولوا الى حالة من البطاله المحلية ، وانتزاعهم من اكواخهم لنجعلهم يصلون الى بيوت شرعية ، وبناء مدارس اكثر تواضعاً ولكنها اكثر انتشاراً ، وان يسند اليهم امر الاعتناء بادارة قراهم بانفسهم ، تلك القرى التي اهملها بعض العمد ، من تلامذة المدرسة الاولى ، المهتمين كثيراً بتحسين الاوساط الاوروبية حيث يسكن ناخبوهم « بطريق الصدفة » ، والعمل ببساطة على ان يصبح مسلمو البلاد « شبيهين بفلاحي فرنسا رغم عاداتهم ودينهم » . ان هذه المشاريع هي الامور المحسوسة التي عينها اولئك الضباط ؛ وبذلك قد اجبروا بعض المستعمرين على ان يدفعوا لعمالهم الاجور التي قررتها الاتفاقات النقابية . وقد هددوا بعدم حماية مزارعهم اذا لم يأخذوا هذه الاوامر بعين الاعتبار . ولتحقيق هذه المهام كانوا في الغالب يأتون

بعاطفة افراد الكشافة الصغار . »

انه في مثل هذه الحالة الروحية تمنى القومندان كلوسترمان على رؤوس الاشهاد ان ينعتق مصير الجزائر من تعصب القوميين المسلمين ، ومن عدم ادراك وانانية المستعمرين الكبار والصغار ، ومن فساد وعجز الزعماء القدماء ، وان يسند امرها طوال خمس سنوات الى ادارة عسكرية بحتة . ان الفكرة ليست رديئة ، وقد تكون مغرية لو لم يكن يوجد في اركان القيادة وفي قطعات الجيش كثير من الضباط الذين اصابتهم عدوى المؤثرات العنصرية واعتنقوا الاساليب البوليسية . ولكن ليكن مفهوماً ان اخطاء هؤلاء لا تبررها الظروف كلها ، ففي الظروف نفسها تصرف آخرون بأريحية بصيرة شرفت بزتهم العسكرية وعلمنا .

فمن هم المذنبون اذن ؟ ان من المستطاع تقسيمهم ، كما أعتقد ، وفقاً لنظام سارت فيه المسؤوليات شوطاً بعيداً من ناحية الخطورة ، مبتعدة في الوقت نفسه عن العمل . فالمنفذ ذو الرتبة الدنيا — كذلك الملازم المكلف من قبل وحدته باستجواب « العصاة » وان يجعل المدنيين يتكلمون لاجل « ايضاح الوضعية » — هو بالتأكيد غلام شرس او ان وظيفته تستدعي العنف ؛ وهو ليس كثير الذكاء ولا مثقفاً : واذا كان مثقفاً فسيتألم كثيراً من القيام بما طلب منه ، وسوف يشعر حين يسمع صراخ ضحاياه بالبعد الشاسع بين ما هو : جندي لفرنسا ، انساني

ومسيحي ، وبين ما يقوم به : جريمة عنصرية . واذا كان ذا افكار اخلاقية ، وهذا ممكن ، فان هذه الافكار لا يمكن ان تكون سوى اوامر للضمير الاجتماعي مختصرة بشكل خطر : **الوطن** ، يعتقد به كصنم تبطل خدمته اوامر الله وقوانين الطبيعة العاقلة ، والواجب ، يقود الى الاجبار على عمل ما يأمر به الرئيس دون انتقاد شخصي ، والشرف ، يفهم في مرأى اخلاقية من الهجوم الصرف ، يكسف عواطف العدالة وشرف النفس . وانا لا انفي الافتراض القائل ان الضابط الذي يقوم بالتعذيب ، والمعمد كمسيحي وتلميذ كاثوليكي ، ويذهب نهار الاحد الى قداس كاهنه ، ينسى ، وهو يعترف ، ان يتكلم عما لا يعتبره خطيئة : انه لا يفعل سوى واجبه حين يجعل « الاوباش يبصقون » بجميع الوسائل : لنكن متساهلين ، كما يكون الله دون شك ، مع الرؤوس التي تحتوي على قليل من الدماغ !.

وفي المرتبة التي تعلو هذا القاسي البسيط نوعاً ، نجد من هو اكثر ذنباً منه ، وأعني رجلاً عسكرياً اكثر تطوراً واكثر وعياً ، لم يكتسب العادات القاسية التي تتطلبها وظيفته دون شيء من السادية . انه يبدو كشبح في تلك الملاحظات المستخرجة من يوميات ضابط احتياطي .

« البارحة مساء ، آويت في مدينتنا رئيس محاسبي الكتيبة المستدعاة معنا الى ن ... والمعسكرة وقتياً في

ب ... وقد استيقظ رئيسها النقيب م ... في الليـلة الثانيـة على صراخ يمزق القلب ، فنهض وعرف مصدر الصراخ ، واسرع الى مكتب ضابط الاستعلامات في منطقة الكتيبة ، وكان هذا الضابط – وهو برتبة ملازم – مسترخياً على اريكة ، ويداه وراء نقرته ، وهو يستجوب عربياً في غرفة ملأى بأكوام من الاشرطة الكهربائية : عملية التلفون ، وكان هناك شريط على العضـو الجنسي وآخر على الرأس ، والرجل يصرخ . فأمره م ... بأن يكف حالاً . ولكن الملازم قال له انه لا يتلقى الاوامر من نقيب وحدة ... »

« كان مسترخياً على اريكة ويداه وراء نقرته » . انها جلسة عارضة لجلاد متمدن تتعدى تأملاته مـا وراء صفات الخير والشر المشتركة ، ويغطس في الرعب بـلا مبالاة ، كرجل فوق البشر قد تغلب على الشفقة . انني لا ارى حقيقة كيف يمكن اكتشاف علاقة ، مهما كانت ملتوية او دقيقة ، بين دوام الثقافة الفرنسية وسلوك هذا الرئيس الذي ينتمي من حيث المبدأ الى نخبة اجتماعيـة فرنسية : ان الوطن الجسدي charnelle قد خدم بواسطة هذا الرجل تقريباً – ومع ذلك فانني اظل مقتنعاً انه خدمه بشكل سيء ، وانه يخطىء بمحتوى ما يفترض انه واجبه ، – ولكن الوطن الروحي قد أهين وتعرض للخيانة .

وفوق ذلك ايضاً ، يوجد اولئك الذين يتولون القيادة : ان هؤلاء لا يلوثون ايديهم ولا أعينهم ايضاً . وكل شيء يجعلنا نعتقد انهم يتجنبون الاوامر الخطية : فقد كان من المستصعب جداً وجود ملاحظة من القيادة تعين لضباط مصلحة الاستعلامات استعمال المغطس او التلفون – وهو اهمال حكيم يتيح لهم في حالة التحقيق البرلماني او الحكومي ان يجيبوا قائلين : « اننا لا نعلم شيئاً عن ذلك ، وهذه الاعمال ، المؤسفة دون شك ، تحدث في حمى العمل ، وفي فوضى حرب عنيفة وصعبة ، وفي عناصر جيش يستحيل مراقبتها . » ومن الممكن ايضاً وجود اوامر موقعة من القائد العام تتضمن منعاً للوسائل غير الانسانية ، ولكن هناك مجال لأن يقال لمنفذ مهمة الاستعلامات : « وبعد ، يا صديقي ، رتب امرك فيما يتعلق بالوسائل ... » – وهذا ما يجعل كل شيء ممكناً . وعلى كل حال فهناك واحد من اثنين : اما ان القيادة التي لا يمكن ان تجهل هذه الاعمال تريد ان تمنعها حقاً ولكنها مجرمة بسبب ضعفها في ان تجعلها تحدث ، واما انها تشجعها ، او على الاقل تتغاضى عنها ، وبذلك نحمل المسؤولية بشكل أكيد .

ولكنني أرى شركاء آخرين بالذنب ، اكثر بعداً وأقل تلوثاً في الظاهر ، واكبر ذنباً ايضاً : وهؤلاء الشركاء هم نحن جميعنا ، نحن الذين لا نريد ان نعلم ولا نقول شيئاً . وأساليب حربية كهذه – واقصد هنا التعذيب ،

والاعدام ، وفرض الضرائب ، والانتقام – لا يمكن ان تتوطد ما لم تكن الحكومة راضية عنها . ولن ترضى الحكومة بها الا اذا تركها الرأي العام او استصوب ذلك ضمناً . ومن الممكن ان يكون الرأي العام قد أعطي معلومات خاطئة : ولكن على من يقع الخطأ ؟ قد يقال في بادىء الامر : على الصحفيين . ولكن هؤلاء سوف يحتجون قائلين : هناك الرقابة ، وهناك ايضاً البحث الدقيق مع اولئك الذين يظهرون انهم استقوا المعلومات الصحيحة ، وهناك السجن ايضا . وكل هذا صحيح ، ويفترض ، من ناحية الديموقراطيين الذين يحكمون فرنسا حالياً ، وجود اساليب وروح موافقة لفاشستية قصيرة النظر محمومة اكثر من موافقتها لروح النقد والحرية والعدالة التي تحدد النزعة الوطنية في الديموقراطية . كلا ، ليس هناك اي عذر لان نغطي بالصمت العام اثمن شرف فاسد ومشوه لفرنسا . واني أكرر ذلك ليصبح السبب الذي يبرر هذا الكتاب مفهوماً : ان مسؤوليتنا ملتزمة بكل شيء ما دمنا نلتجيء براءاة الى الضمير السليم – كأنه يكفينا الا نلوث ايدينا شخصياً ، بينما نحن ، في نظر الشعوب وتحت حكم الله ، شركاء بالقذارات ، برضى قلوبنا وصمت افواهنا .

وهنا نضع اصبعنا على مشكلة اخلاقية تستحق التوضيح : انها مشكلة حالة الذنب الجماعية . فاذا اعتبرت كالمبدأ الذي

يسمح بالقضاء على فرد هو شخصياً بريء بسبب ذنب يعود بوجه عام على جماعة هو عضو فيها – مثلاً حين هدم الالمان اورادور بدافع الانتقام من اعمال المقاومة المحلية ، وحين حكمت المحاكم الفرنسية بعد ذلك على رجال ينتمون الى الجيش الذي أحرق اورادور دون ان يثبت اشتراكهم الشخصي بالذنب – فان حالة الذنب الجماعية تعرض اساس حكم قابل للتجريح ، كان فقهاء القانون على حق في التحرز منه . ولكن هناك طريقة معاكسة تماماً ، كحالة الذنب الايجابية لجمهور ما ، والمتعلقة باعمال شخص مرتبط به ، سواء كان له حصة مباشرة بواسطة ضغط الضمير المشترك ، او انها غير مباشرة اذا تركه يقوم بعمله . ان عاطفة حالة الذنب الجماعية في هذه الحالة هي بشكل عفوي لعاطفة الشرف : عائلة تشعر بتلويث شرفها لأن احد اعضائها اقترف ذنباً ، وفرقة عسكرية يتلوث شرفها لأن احد افرادها كان جباناً ، والمدينة كذلك بسبب خزي احد المواطنين ، والأمة ايضاً لأن هناك جرائم قد ارتكبت باسمها . ان حركة قلبية كهذه ، مؤسسة على الشعور بالتعاضد الذي هو في الوقت نفسه حيوي واخلاقي ويربط الشخص بالجمهور ، هي عامل تقدم ؛ وبواسطتها فان الضمير السليم الذي يستدعي السكون ، والاحتياط ، والرخاء بالمؤثرات والمصالح ، يخضع امام قلق المساهمة بشر قد غمس فيه مع انه لم يرتكبه شخصياً . والا كيف

نرفض البغي ونجعله يتراجع اذا تعذرت معرفته قبلاً ؟ انني ادرك ان ارتعاشات الضمير الفردي هذه هي خطرة على الدولة : انه الفعل المنعكس عند انتيغوني .. ولكن هل من الملائم لفيلسوف ان يسخر الميتافيزيك ليبرر شيشرون ؟.

وقد روى ارمان سالاكرو انه كان منذ مراهقته محاطاً بمشكلة الشر وبعاطفة الابرياء الأبدية التي كشفها له نص لاتيني لتاسيت : هي الحكاية المخيفة ؛ حكاية ابنة سيجان Séjan ، التي اغتصبت في سجنها ثم خنقت بأمر من تيبر Tibère . ان صوت هذه الطفلة الصارخة معربة عن رعبها وبراءتها ، والذي ما زال أبداً يسمعه في أعماقه ، قد أصبح له العلاقة والترجيع لاحتجاج يهتز خفية في الحكاية من اولها الى آخرها ، والتي كان كتابه يحمل صداها الخفي . نعم ، يجب ان نعرف كيف نستمع الى شكوى البريئة المهتوكة العرض ، المظلومة الحقيقية ، تلك الشكوى الخارجة من الزنزانات ومن غرف التعذيب .

واليكم هذه الصرخة ايضاً :

من يوميات الطريق

« ... هناك غلام في الثالثة عشرة من سنه سجين في المطبخ منذ يومين . وقد زعم رجال العسس انهم فاجأوه

هارباً لينذر الثائرين . وقد كان مع غيره من الرعاة ، وهرب حين ابصر الجنود نحو غاب خرج منه بعض رفاقه . وأطلق الجنود النار . وتوقف الرشاش . ونجح الجنود بالقبض عليه مع هرم حاول الهرب أيضاً .

« ... والبارحة مساء ، اعتقدت اولاً ان العواء صادر عن بنات آوى ، ولكنه استمر . فخرجت بالبيجاما وسمعت جلبة أصوات وتأوهات صادرة من خيمة الضابط ، فقلت لنفسي : « من المستحيل ان يمارسوا عملية التلفون على الولد . انه الهرم الذي يريدون اجباره على الكلام . » ودخلت الى منزلي ، وعاودني التقزز ، وفكرت بالولد الذي تخيلت انهم يعذبونه داخل العربة المقطورة بسيارة (الجيب) حيث سجن في الليل . لقد كان الطفل هو الذي يعذبونه . ويبدو انه تكلم ، فقد اعلن لي الملازم ذلك صباحاً بشكل انتصار . وكنت محطماً تماماً . فمن المستحيل الذهاب نحو الولد ، او أن أكلمه ، واخفف عنه . انه لن يفهمني لأنه لا يعرف الفرنسية ... »

ان صراخ الخوف والالم الصادر عن هذا الولد العربي ، الذي قام بتعذيبه ضابطان فرنسيان لكي يحملاه على الوشاية برجال من جنسه ، قد حملته في نفسي كأنه حرق بعدما سمعته في شهادة لا يعتورها الشك . ان هذا المستجوب في ظلمات العجز واليأس لا يمكن ان يهلك لو عرف احد

الناس ان يردعه ويملأه بصدى من الحنق والحب . وفي عصر كعصرنا ، مشحون بالفظائع ، والحماقات ، والاكاذيب ، والقساوة ، يحدث في الغالب ان يفقد الكاتب قلبه : ما فائدة إقامة حاجز هش من سطور الكلمات ، كقصر من الرمل ضد الموجة العمياء الملوثة ، وان تكدس الكتب التي تخنقها اللامبالاة ، ويشوهها الافتراء ، والتي سيغيبها النسيان ؟ ومع ذلك فلن يكون عمل الكاتب دون فعالية او نبل اذا استطاع ، بعد ان التقط الصرخة الاحتفالية لراع صغير أهينت الانسانية فيه ، ان يساعده على الصعود نحو النجوم ، واجتياز البحر ، وايقاظ الانسان — ايقاظ فرنسا .

من الشرف

انني اعلم ما ينتظرني : اذا صُدِم الرأي العام بهذه الوقائع فسوف يُتهم هذا الكتاب — وأعرف مقدماً ممن وبأية عبارات — وكأنه عمل من أعمال الخيانة . وإلا فليس هو سوى كلام القي في سبيل الشرف ولاجل مصلحة الوطن . ففي سبيل الشرف : انه الوضوح نفسه . ولاجل المصلحة ، نعم ، لان شيئاً من تطبيق الوقاحة والعنف ، البعيد عن ايقاف انحطاط القدرة الفرنسية ، يترك هذه القدرة في كل مرة اكثر ذلاً وخزياً .

ولا يتعلق الامر هنا بالمثالية — الا اذا كان يصنع من هذه الكلمة إهانة سهلة لتلويث كل محاولة نبيلة نوعاً ترمي الى دمج القيم الاخلاقية بالعمل ، والتاريخ ، وهذا صحيح ، هو لعبة شرسة لا يمكن دائماً تجنب الوسائل القاسية فيها ، ويجب ايضاً الا تتناقض كثيراً مع روح

الامة التي تستعملها ، فتفقد من الخطورة اكثر مما تكتسب من القوة . ويجب ايضاً ، وعلى الخصوص ، الا تسير ضد الغاية المفترض بلوغها بواسطتها . ففي حرب هدفها تنظيم تساكن عنصرين على أرض واحدة ، هل يكون تقديم البرهان على الواقعية السياسية في مضاعفة هضم حقوق الاشخاص ، وفي المظالم البوليسية ، والانتقام الجماعي ، وكل ما من طبيعته ان ينفخ في نار الحقد ويبذر الحقد والحذر ؟..

حدث ذات يوم ، في مدينة كبرى بالجزائر ، ان عقد العزم على القيام بتفتيش دقيق ، وقد هبطت فكرة متألقة على احد افراد البوليس او العسكريين ، لا ادري ، ان يستخدم جمهوراً من المساعدات الاجتماعيات لاجل تفتيش النساء العربيات ، وأولئك كن يقدمن خدمات ثمينة في ذلك المكان بمساعدتهن الحسنة للسكان المسلمين ، وبالثقة التي عرفن كيف ينلنها ، فقد حرصن على المخالطة ، وأوثقن الروابط ، واشتغلن باتقان في سبيل التعايش وإقرار السلام . واستخدامهن في عملية بوليسية معناه هدم عملهن ، وأدرك معظمهن ذلك مع أنهن فتيات بسيطات لا يملكن شريطاً على الكم ولا شهادة من القيادة ، انهن ادركن ذلك بعامل استقامة القلب والحس السليم ، ورفضن ان يطعن أمراً ليس لاحد الحق باصداره اليهن . ولكن ماذا يمكن القول بهذه الواقعية التي اوحت هذا العزم الى ذوي الشأن ؟..

ان الحصة الايجابية الخصبة في العمل العسكري في الجزائر ، ، تلك التي أعدت نظاماً فسح مجال الحظ امام الوجود الفرنسي ، قد جاءت من جنود جعلوا انفسهم معلمين وممرضين اكثر مما كانوا عسكريين وافراد شرطة يقومون بالتعذيب ويضاعفون عمليات التفتيش والعقوبات والاعدام . وحين ترتفع الشكوى امام بعض الضباط من هذه الوسائل العنيفة التي تهين حتى حق الحرب نفسه ، فليس لهم سوى كلمة يجيبون بها ، « هذا مؤسف ، ولكنه اسفر عن نتيجة . » فهل صحيح انه اسفر عن نتيجة ؟ انا أسلم ان معرفة المكان الذي خبأ فيه الخصم عشرين بندقية هي نتيجة بنظر رئيس فرقة في ساحة المعركة ، ولكن اذا كانت هذه المعلومات قد تم الحصول عليها بوسائل قسرية ، منكرة ، غير انسانية ، فانها تنشر في مئات من الرجال نار الغضب ضد فرنسا وتربح قضية الثائرين الف إرادة ، فهل من المؤكد انها أسفرت عن نتيجة ؟ لقد كتب جورج بانشنيه كخلاصة لربورتاجه لجريدة (الموند) عن فوضى نيسان ١٩٥٦ في قسنطينة : « ان نتيجة كل ذلك هي ورطة رهيبة ، فقد رأيت في قسنطينة عرباً أذكياء ومتمدنين لا يعرفون ماذا يفعلون ، ويشعرون بالخوف . انهم يزعمون ان مركزهم كمفكرين جعل اسماءهم تكتب على لائحة البوليس السوداء . وأريد ان اعتقد انهم يبالغون ، ولكن المهم هو انهم يعتقدون

ذلك . اما الآخرون ، جميع سكان المدينة السفلي ، أولئك لذين رأوا ، عند عودتهم في الساعة الرابعة صباحاً ، ان حوانيتهم قد اجتيحت ، او سمعوا نساءهم يسردن كيف تصرف افراد البوليس حيالهن ، فمن الممكن تخيل الخوف والحقد اللذين تراكما في قلوبهم . ومن الصعب جداً ، بعد ذلك ، الزعم انه قد جرى تمييز بين هؤلاء المسلمين وأولئك : ان الفرنسيين هم الذين وضعوا المسلمين في المعسكر المعادي ، في قسنطينة في التاسع والعشرين من اذار . »

ويبدو منذ بضعة اسابيع ان الحكومة قد أدركت المساوىء الكبرى لخطة المضايقة والرعب التي تلوث شرف فرنسا وتلحق الضرر بمصالحها نفسها . وقد سارت على الطريق القويم باعترافها ببلاغ رسمي ان الحوادث التي جرت في مديا Médéa بتاريخ ١٦ كانون الاول ١٩٥٦ ، أثناء عمليات التحقيق التي جرت بقليل من الاقدام ، والتي أودت بحياة ستة مسلمين مدنيين ، كانت « مدعاة للأسف العميق » . ثم أعلنت عن ملاحقة المسؤولين . ولم تكن هي المرة الاولى التي استدعت فيها اعمال العصاة العنيفة انتقامات قاسية ، ولكن الحوادث التي من هذا النوع كانت تغطى على العموم بالصمت او يقلل من أهميتها . ولنتوجه بالشكر الى المقيم العام اذا سلم بان اعترافاً شريفاً هو افضل من كذب رسمي ، وعلى الخصوص اذا طلب من السلطة العسكرية ان تعاقب على الاخطاء التي توضحها

ظروف حرب راعبة دون ان تبررها . ان نفوذ الجيش سوف يربح من جراء ذلك ولن تكون الحظوظ سيئة بايجاد حل سياسي . ولنسجل على كل حال ان هذا المفهوم للحرب يسير في الاتجاه الذي يتطلبه اولئك الذين لا يتخلون عن التأكيد ان الواجب الفرنسي يجب ان يكون انسانياً ، وانه يتخلى عن رفقة علماء الابادة العنصرية ومطبقي عملية « التلفون » و « سخرة الغابات » .

واذا كنت قد قمت بهذه الغارة في نطاق الفعالية السياسية ، فلكي لا أفسح المجال للقول انني اساوم على المصلحة الوطنية بطلبي الخضوع لبعض مبادىء الحق ولبعض القواعد الاخلاقية ، في طريقة قيادة الحرب نفسها : فهذه المصلحة سوف تخدم في الظروف الحاضرة بذلك الاخلاص افضل مما تخدم بواسطة الارتداد الى لا أخلاقية عنيفة تتجاوب تجاوباً سيئاً مع رسالة فرنسا التاريخية . وبهذا الارتداد يصبح الذين نحاربهم حانقين اكثر مما هم مرتعبون : ويصبح العالم الذي يراقبنا منذهلاً خائب الامل : انني لا أرى ما ربحناه من هذا الارتداد . وبعد ، فبأي حق ألام على تذكيري الجيش ، جيش المستعمرات على الخصوص ، بتقليد غاليني وليوتي ، كأن هذا التقليد يجب ان يحول دون الدفاع عما ساهم في بنائه ؟

ومع ذلك فأنني أجرؤ على الاعتراف : انني أتكلم هنا باسم ضرورة أساسية جداً وفي سبيل مصلحة أسمى من

السياسة . فاذا أثبت لي – وهذا ما أشك به – ان مجزرة ستيف Sétif سنة ١٩٤٥ ، ثم عملية المحق في رأس بون ، وعملية القمع في مدغشقر ، وعمليات الانتقام اليوم في الجزائر قد « أنقذت الامبراطورية » أو انها مددت على الاقل لبضع سنوات أجل دائرة فرنسية من البناء الاستعماري في بلاد ما وراء البحار ، فسوف أقول أيضاً ان هذه الوسائل لا تلائم ابداً ، لانها تركت فرنسا تصغر أمام التاريخ وأضرت بعظمتها الحقيقية ، وحتى لو كان تعذيب عربي يجدي نفعاً فسوف أقول ان هذا التعذيب هو مجرم ، وأنه لا يحتمل كأنه وصمة للشرف ، وانه مميت بالمعنى الذي نقول فيه عن خطيئة انها مميتة : ان هناك شيئاً أساسياً اكثر من القدرة قد أصيب وهدم ، انه الانحدار الجوهري الذي لا يعوض والذي هو اكبر من اي خراب احاط بجيش .

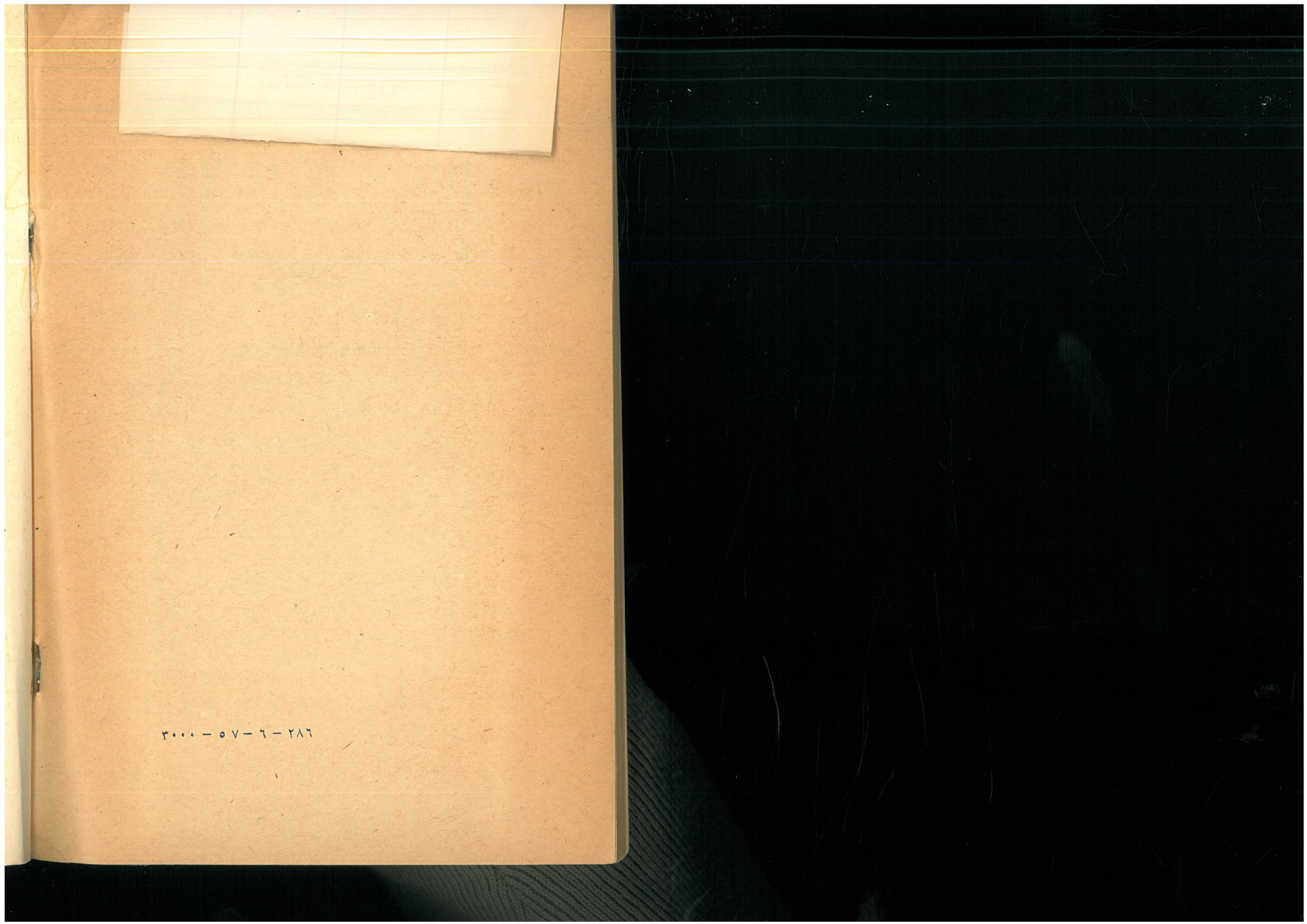
وفي احدى مذكرات الجنود العاملين في الجزائر ، وقد أعطيت لي لاقرأها ، استخلصت جواباً بليغاً بشكل مفرط كان ضابط من النوع القاسي قد رد به على احد رفاقه الذي شعر بالعار بسبب فظاعة التعذيب والانتقام : « انني لا أؤمن بمهمة فرنسا . اما الجيش فقد دخلته في ك ... وانا لست الا موظفاً ، وسأكون اكثر سعادة في نظام استبدادي . » انني أعتقد بالفعل ان شيئاً من اخلاقية الحرب الكلية والسير على اساليب مكيافيلية لا

ضمير فيها ولا شفقة لا يكونان مجرمين الا في نسيان اجرامي لرسالة فرنسا وفي خيانة روحها . وما الذي لا يمكن ان نخافه من غلمان يخوضون الحرب بهذه الروح ؟ واي جنود يعدون لها ؟ اما نحن الذين كافحنا الوحشية العنصرية فقد كنا حمقى اذن ، ولسنا سوى مغلوبي هتلر اذا استعار وطننا منه افكاره ووسائله ، وتخلى عن الايمان الذي نعتقده فطرياً في جوهر الامة .

وهل يمكن ان نتألم الى هذه الدرجة من شيء لسنا مسؤولين عنه شخصياً ؟ انها عاطفة تتعلق بطبيعة الانسان ، وبطبيعته النبيلة كما اعتقد ، لانها موجودة في جذور الشرف . ان الابن يشعر بتوبيخ الضمير بسبب عمل ابيه ، والاب بسبب عمل ابنه ، مع انه لم يكن لاحدهما نصيب منه ، وذلك يقتضي تعاضد جسدي وروحي يربطها بالمجد وبالعار . وليست فرنسا ، لي كفرنسي ، حقيقة خارجة عن شخصي ، انني فيها وهي في . وقد كتب اونامونو : « انني اتألم لاسبانيا » . وهناك ايام يجب ان يقال فيها : « انني مصاب بألم في فرنسا j'ai mal à la France » — « نحن الذين نؤمن بفرنسا ! » هكذا يصرخ الوطنيون العمي الصم الذين يعدون لها مصائب جديدة تحت هتافات الجمهور – ولكن ما هو الايمان بفرنسا اذا كنا نعرف ما هي وما يجب عليها تجاه العالم وما يجب عليها حيال نفسها؟ « لقد خسرنا كل شيء الا الشرف ! » كم هناك من

أجيال فرنسية تعرضت لصدمة الكلمة الشهيرة التي كانت تتوج ، في كتابهم المدرسي ، صورة الملك – الفارس ، الكبير حتى في البؤس ! ان هذه الكلمة تجيب النداء العميق الصادر عن روح شعب لم ينقطع ، منذ « انشودة رولان » عن الاعتقاد ان الشجاعة وشرف النفس يتألقان ببريق ليس بحاجة الى نجاح ، ويقتضيان مكافأة مستقلة عن احكام التاريخ . ويجب التفكير بشكل منحط لرؤية علامة ضعف في حركة الروح هذه وللغضب مثلاً من اطلاق اسم ديان – بيان – فو على فوج متخرج من سان سير : فاذا لم يكن هناك اي جبن عسكري يلوث العلم الفرنسي في ديان – بيان – فو ، واذا كان الجنود الفرنسيون قد غلبوا فيها كما يجب ان يغلبوا وعرفوا كيف يموتون فيها ، فمن الحق ان يبقى اسم الشقاء اسماً للمجد . « لقد خسرنا كل شيء الا الشرف » – نعم ، ان امتنا في اوج وعيها كانت تهتم كثيراً بنبيل الاعتبار حتى في الاندحار ، وان لا تشتري النصر بالمكر والخيانة . آه ! فهل بامكاننا الا نخسر المعركة والشرف في وقت واحد ! ولتجرؤ فرنسا اخيراً ان تقامر بشرفها هناك حيث لا يستطيع القدر المشؤوم ان يفعل شيئاً ضدها : في الاخلاص للفكرة الممدنة التي تجعل الشخص اكثر تقديساً من المجتمع ، والروح أسمى من التاريخ ، والحق اصلب من القوة .

فهرست



٢٨٦ – ٦ – ٥٧ – ٣٠٠٠

الثمن ١٠٠ ق.ل. او ما يعادلها

مطابع دار العلم للملايين
بيروت